سورة البلد

مكية، وهي إحدى عشرون آية مع البسملة، وفيها ركوع واحد

يقول ابن عباس وابن الزبير إنها مكية. والعجيب أنه حتى (ويري) من بين الكتاب المسيحيين يقول إننا نستطيع القول بكل اطمئنان ويقين دون أي خطأ أو تناقض مع الشواهد التاريخية أنها نـــزلت في السنة الأولى. إذن، فهو لا يعتبرها من السور المكية فحسب، بل من السنة الأولى من البعثة. مما يزيد موضوعها إعجازا.

بيد أن موضوعها -عندي- ذو صلة بمواضيع السور السابقة الثلاث، والتي نـــزلت في السنة الثالثة أو الرابعة من البعثة. وعليه فإن هذه السورة أيضا نـــزلت في أواخر السنة الثالثة أو بداية الرابعة، ومتزامنة في نـــزولها مع السور السابقة.

وأول ما يربطها بالسور السابقة أن تلك تخبر عن قرب بداية الاضطهاد، حيث نبه الله فيها المسلمين أن معارضة منظمة من قبل الكافرين وشيكة، وأنها ستكون شديدة الأذى وطويلة المدى حيث تمتدّ عشر سنوات. ثم بعد ذلك ستتهيّأ الأسباب لإزالتها. ثم يليها أذًى بسيط يبقى لبعض الوقت، ثم يطلع الفجر. أما في هذه السورة فقد حدد الله تعالى مكان هذا الاضطهاد كما ذكر تفاصيل أخرى، فأخبر أن هذا الاضطهاد يبدأ من مكة نفسها؛ ذلك أن المسلمين لم يكونوا قد تعرّضوا للظلم بعدُ، وكان أقارب النبيِّ ﷺ وأقاربَ أصحابه لا يزالون بمكة، فكان من الممكن أن يفكر المسلمون أن نبوءة الليالي العشر ربما تظهر بطريق آخر.. أي أن الإسلام سينتشر في مناطق أخرى وهناك يُضطهدون. كان الناس يعتنقون الإسلام خارج مكة هنا وهناك فلذا كان من الممكن أن تتبادر إلى الأذهان أن بداية اضطهاد المسلمين ستكون في منطقة أخرى من الجزيرة، وربما يواجه أُناس آخرون هذه الآلام والمحن، فأبطل الله هذه الشبهات هنا، وأخبر أن هذا ظن خاطئ،

فسوف تتعرضون للفظائع على أيدي أهل مكة نفسها، وستُصوَّب إليكم سهام الجوْر من هذا البلد الذي تعيشون فيه ويعيش فيه أقاربكم ومعارفكم، والذي لا تتصورون أن أهله الكافرين يمكن أن يصبوا عليكم هذا الاضطهاد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾

التفسير: يقول النحويون عن حرف (لا) ما يلي: "في (لا) وجهان: أحدهما هي زائدة كما زيدتْ في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم﴾." (إملاء ما منَّ به الرحمن: تفسير سورة القيامة، وفتح القدير).

وليكن معلوما أن قولهم عن (لا): "هي زائدة" لا يعني ما تعنيه كلمة (الزائد) في الأردية، بل المراد من "هي زائدة" عند النحويين أنه جيء بها للتأكيد فقط (المرجع السابق). فمن خصائص اللغة العربية أنها تحتوي على حِكَم فلسفية عديدة، وهذه القاعدة العربية أيضا لها أساس فلسفي، وهو: أنّ من فطرة الإنسان أنه إذا سمع شيئا خلاف المعتاد والمعروف ازداد إليه انتباهًا. فمثلاً يقولون للولد أحيانًا: يا شرير، والجميع يعرف أنهم لا يقصدون سَبَّه أو الإشارة إلى ما يتنافى مع الأخلاق السامية والذوق السليم، بل يشيرون به إلى حدّة في أفعاله وذكائه. أو مثلاً يمشي الولد إلى أمه أحيانا مشية تدرك بها أنه سيسألها الآن شيئا حتما، فتقول له مبتسمة: شرير! ولا تعني أنه شرير فعلا، بل تعني أنها تعلم أنه يحاول بذلك استثارة حبها وحنانها لكي تعطيه شيئا. وهذا ليس أمرا سيئا، بل هو الفطرة عينها. ثم إن المرء يدعو ويتوسل إلى الله تعالى في أدعيته اليومية الكثيرة بأساليب متنوعة عجيبة استدرارًا لفضله ورحمته، فتارةً يقول: ربّ قد قمتُ بعمل كذا وكذا ابتغاء وجهك، فإن كنت تعلم أني لم أعمله إلا ابتغاء مرضاتك، وإذا كان قد نال رضاك.. فحقِّقْ لي حاجتي بسببه. وأحيانا يفكر أنه لو عرض على الله تعالى

مسكنته وفقره وعجزه وقلة حيلته لجاشت رحمته تعالى ونـــزل فضله تعالى لإنقاذه، فيقول: ربّ ليس لي ولي ولا نصير سواك.. إنما أنا وحيد لا حيلة لي ولا معين غيرك، فإني لا أنظُر إلا إليك، فمَن يرحمني إن لم ترحمني؟ فانصرْني وادفعْ كربي. وهذا الأسلوب ليس فيه خداع ولا شر ولا خيانة، بل يعرف الجميع أنه طريق لاستثارة رحمة الله وحبه. والأم أيضًا حين تسمي ولدها شريرا؛ فلا تفعل ذلك غضبًا عليه، إنما تعبيرًا عن المتعة التي تجدها في تصرُّف ابنها، فتريد أن تحتضنه وتضمه إلى صدرها فرحًا بذكائه؛ إذ عرض عليها مطلبه بأسلوب رائع. إذن، من فطرة الإنسان أن يستخدم أحيانا كلمة خلاف المعروف المعتاد ليلفت انتباه الآخرين.

وفي لغتنا البنجابية أيضا تُستخدم أحيانا كلمات خلاف ظاهر مفهومها؛ فمثلا تقول للشخص أثناء الكلام: اترُكْني، مع أنه لم يكن آخذًا بيدك حتى يتركك، بل هذا أسلوب لمنع الآخر من شيء بشدة.

كذلك يقول النحويون: إنه إذا أريدَ التنبيه إلى أمر وتأكيده تُستخدم الكلمة استعمالاً غير مألوف شأن الأم التي تسمي ولدها شريرا في بعض الأحيان حبًّا لا سخطًا، لأنها تعلم أن كلمة الشرير أشدُّ تعبيرا عن حبها من كلمة الحب نفسها. إنها تسميه شريرا، وقسمات وجهها وحركة شفاهها ولمعان عيونها تدل أنها تذوب حنانًا عليه.

باختصار: يقول النحويون أن (لا) هنا زائدة إذ لم ترد بمعناها المعروف، بل جاءت تأكيدًا للكلام. يقول الله تعالى (لا)، وبسماعها يصاب الإنسان بحيرة ويتنبه للأمر المنفي انتباهًا خاصًا! فلو أن الله تعالى بدأ الكلام هنا بدون (لا) وقال: أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، انتبه الناس إلى الكلام بعد سماع القسم وفكّروا فيه، ولكنه تعالى قال قبل ذلك: ﴿لا﴾، وكأنه قال: اتركوا الأمور الأخرى جانبًا واستمِعوا إلى ما نقول، وهكذا انتبه كل إنسان إلى ما يقال بعد ذلك.

باختصار: قد جاءت (لا) هنا لِلَفْت الانتباه وكشف الحقيقة، ليكون الناس جاهزين لسماع الكلام الذي يلي القسم.

وقال بعض النحويين إن (لا) ليست زائدة، بل لها معنيان أحدهما: هي نفيٌ للقَسَم بها، أي لا أقسم بهذا البلد. (فتح القدير)

ويثار هنا سؤال: لماذا نُفي القسم هنا؟ قالوا: لأن الله تعالى يعني أن ما نقوله واضح جليّ بحيث لا حاجة للقسم به، ثم قالوا: وثانيهما: أن (لا) ردٌّ لكلام مقدّر للكافرين (فتح القدير).. أي هناك اعتراض قد رُدَّ عليه بقوله تعالى (لا). ويُعرَف هذا الكلام المقدر بطريقين: إما بمفهوم هذه الآية أو بالنظر إلى مضمون السورة السابقة. وقد قدروا هذا الكلام من مضمون السورة السابقة وقالوا: المراد أن ما قلتم في السورة السابقة باطل. أو المراد أن الذين يعترضون على ما قلنا من قبل هم على الباطل، أي ليس الأمر كما تحسبون، بل قولهم باطل. وكلام الكفار الذي قدّروه هنا هو "أنت مفتر"، فردّ الله عليهم بقوله: "لا، أنت لست بمفتر"، بل أنت رسولنا الصادق ونقدِّم كشهادة على ذلك مدينة مكة. (فتح القدير)

وعندي أن (لا) هنا لم تأت ردًّا على قول الكفار "أنت مفتر"، بل هي ردّ على خططهم المذكورة في الآيات السابقة، أعني أن الكافرين كانوا قد بدأوا يخططون سرًا للقضاء على النبي ﷺ وأصحابه، فلأن خططهم كانت لا تزال خفية في قلوبهم، فتحدث القرآن عنها أيضا بأسلوب غير مباشر. وكأن الله تعالى لـــمّح للكفار وقال إننا على علم بمكائدكم، ولكن اعلموا أنكم لن تنجحوا فيها أبدا. وهذا الأسلوب قد اتبعه الله تعالى في سورة الغاشية أيضا، حيث أخبر أن وجوها ستصبح عاملة ناصبة. ثم أخبر في سورة الفجر أنه ستأتي على المسلمين ليال عشر مظلمة. وهنا في سورة البلد أيضًا لم يذكر نوايا الكافرين علنًا، وإنما لمح إليها فحسب. وذلك لأن الكافرين أيضًا لم يجاهروا بالمعارضة، وإنما كانوا يخططون سرًا للقضاء على الإسلام، ولو كشف الله تعالى هذه الأمور للناس لقيل إن المسلمين هم البادئون؛ إذ أثاروا الكافرين أولاً. إذن، لأن الكافرين لم يجهروا بمكائدهم، فقال الله لهم: (لا).. أي إني لا أخبر الناس، ولكني أؤكد لكم أن ما في قلوبكم لن يتحقق، وأتحداكم أن خططكم السرية هذه ستبوء بالفشل. ومع ذلك قد لمح الله تعالى عن الأمر الواقع أيضا ولكن بحيث لا يفهمه الجميع، حتى لا يُعدّ هذا الكلام إثارة

للكافرين، كما لا يقول أحد فيما بعد إن القرآن الكريم قد كذب في ادعائه أنه قد فهم نوايا الكافرين. ذلك أن الإنسان يدعي أحيانًا أنه قد فهم الأمر مع أنه لم يفهم شيئا في الحقيقة، ولذلك قد شرح الله تعالى الأمر بعدها مبينًا ما فُهم من أمر الكافرين، ولكنه ذكره بأسلوب يحقق الهدف وبحيث لا يُتيح الفرصة لأحد للقول إن القرآن أثار الكافرين أولاً بقوله إنهم يضمرون نوايا سيئة ضد المسلمين.

أما الدليل الذي ذكره الله على علمه بنوايا الكافرين فجاء في الجزء الثاني من الآيات، وسوف نشرحه في مكانه.

لقد تكرر قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ﴾ في القرآن الكريم في ثمانية مواضع: في سورة القيامة (مرتين)، البلد، الواقعة، الحاقة، المعارج، التكوير، الانشقاق، وكلها سور مكية.

لقد حلف الله تعالى بالمخلوقات في القرآن الكريم بطريقين: فحيثما أقسم بها بحرف الواو لم يذكر قبلها (لا)، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾، وحيثما ذكَر (لا) عند القسم أردفَه بقَسمٍ ظاهر بقوله (أُقسِم)، وقد مضت الأمثلة على ذلك في السور السابقة. هناك موضع واحد فقط حيث لم يستخدم الله تعالى (أُقسِمُ) بعد (لا)، بل أتى بواو القَسم، وهو قوله تعالى ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٦).. وذلك لأن الله تعالى قد أقسم هنا بنفسه لا بغيره من المخلوقات. ويتضح من هنا أن كلمة (أُقْسِم) تأتي للتأكيد ولكشف معنى (لا)، لأنه تعالى عندما أقسَمَ بنفسه بعد (لا) اكتفى بواو القسم، ولكنه إذا لم يذكر اسم الجلالة بعد (لا) أضاف كلمة (أُقْسِمُ) دائما؛ إذ يعرف الجميع أن القَسَم بالله أمر شائع معروف، ولكنهم لا يعرفون أن القَسم بغير الله أيضا ممكن. فحيث إن (لا) تفيد النفي، فأتى الله بعدها بكلمة (أُقسِمُ) كي لا يُعتبر نفيًا للقَسم نفسه.

وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

حِلٌّ: "الحِلّ ما جاوزَ الحرمَ من أرض مكة، ويقابله الحرمُ؛ والحِلُّ: ضد الحرام".

تسمى مكة المكرمة حَرَمًا لعدم جواز الصيد وقطع الشجر والقتال فيها، ولكن بعد بضعة أميال تنتهي حدود الحرم وتحلّ هذه الأمور؛ ولذلك يسمى ما هو خارج الحرم حلاً.

"والحلُّ: الغرضُ الذي يُرمى إليه. والحِلُّ: الاسم من تحليل اليمين، ومنه في الحديث: قال (ﷺ) لامرأة حلفتْ أن لا تُعتِق مولاها: حِلاًّ أُمَّ فلان.. (أي تَحلّلي في يمينك). والحِلُّ: النازل بالمكان، قال الحريريّ: "ما دمتَ حلاًّ بهذا البلد".. أي نازلا. (الأقرب)

إذن، فهناك خمسة معان للحِلّ: ١- مكان خارج الحرم ٢- الحلال ٣- الهدف ٤- تحليل اليمين ٥- النـــزول في المكان.

التفسير: قال الزمخشري إن قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ جملةٌ اعتراضية، بينما اعتبرها صاحب "البحر المحيط" حالية. (البحر المحيط) وعندي أنها حالية نظرًا إلى المعنى المتبادر إلى الذهن، ولكن ذلك لا يعني أن مكة تمثّل شهادةً حالَ كونه ﷺ مقيمًا فيها، أما بدونها فليس فيها أي دلالة على أي أمر روحاني. الحقيقة أن من الحال ما ليس فيه أي شهادة إضافية، ولكن من الحال ما يقدم مع صاحب الحال شهادة مزدوجة. فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أننا نقدم مكة كشهادة في حال كونك مقيمًا، ولكن هذا لا يعني أنها في حد ذاتها لا تشهد على أي شيء. فمَن يسعه أن ينكر أن مكة هي البلدة التي وضع فيها إبراهيم عليه السلام أسس الكعبة ورفع قواعدها، وبسبب هذه الآية العظيمة جعل الله تعالى مكة مرجعا للعرب كلهم؟ ثم إن مكة المعظمة هي البلدة التي أرى الله تعالى فيها آية عظيمة قبل مولد النبي ﷺ.. أعني أن الله تعالى دمر أبرهة وجنوده — أصحاب الفيل - لما جاء بنية غزوها. ثم إن بئر زمزم في مكة أيضا آية من آيات الله العظيمة. ثم إن الصفا والمروة

تذكاران خالدان لآية ربانية عظيمة يتجدد برؤيتهما إيمان المرء حيث يرى وعود الله التي قطعها مع إبراهيم عليه السلام في حق أولاده متحققةً أمام عينيه. إذن، فمكة كانت في حد ذاتها آية عظيمة من الله تعالى قبل واقعة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، ولا يسع أحدا إنكار هذه الحقيقة. فكل مَن عنده ذرة من الإيمان وعيون بريئة من العمى الروحاني قادرة على رؤية قدرة الله.. يمكن أن يدرك أن مكة كانت – قبل بعثة الرسول ﷺ أيضا – مقاما شهيرًا في العالم نتيجة آيات إبراهيم عليه السلام، وكانت بحد ذاتها شاهدا خالدا على وجود الله تعالى. فثبت أن قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لا يعني أن مكة لم تكن قبل ذلك آية كونية عظيمة، أو لم تكن تنطوي على شهادة على وجود البارئ تعالى، إنما المراد من هذه الجملة الحالية أن من الآيات التي توجد في هذا المكان المقدس أنك حِلٌّ به، وأن مكة لم تكن من قبل آية هامة بقدر ما صارت الآن بسبب وجودك فيها، لأنها شهدت من قبل على أشياء أخرى، أما الآن فتشهد على شيء آخر. كانت مكة من قبل دليلا على أن إبراهيم أو إسماعيل كانا نبيين صادقين، أما الآن فصارت دليلا على أن محمدًا ﷺ نبي الله. كان هذا البلد شهادة على الآيات المرتبطة بإبراهيم فقط، أما الآن ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ فأصبح شاهدا على الآيات الدالة على صدق محمد ﷺ أيضا، وعلى أنه لن تقدر قوة في الدنيا على أن تفشله في هدفه. وهكذا قد أَضْفَتْ هذه الجملة الحالية على مكة طابعا جديدا، حيث يعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدم مكة الآن دليلاً على صدقك يا محمد.

أما باعتبار أن الآيات والأنباء التي تحققت على يد إبراهيم عليه السلام إنما تحققت بتأييد الله ونصرته، وبالتالي كانت مكة دليلا على وجوده تعالى، أي صارت دليلا مزدوجًا إذ تشهد على صدق إسماعيل وإبراهيم وعلى وجود البارئ أيضا؛ فسيعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن مكة كانت دليلا على وجود البارئ تعالى من قبل، إلا أن هذا الدليل سيتجلى بشكل أروع بعد بعثتك فيها، لأن قدرات الله

ستتجلى على يدك في العالم تجليًا غير عادي، وتظهر بواسطتك آيات لم ترها الدنيا من قبل.

ونظرًا إلى معاني (حِلّ) المذكورة آنفًا، ستفسَّر هذه الآية بالمعاني التالية:

أولاً: من معاني الحل الحلال: وعليه سيعني قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدّم هذه البلدة شهادةً على صدق ما ذكرناه سابقا حال كونك حِلاً فيها.. أي مع أن مكة حرمٌ لا يجوز فيها ما يجوز خارجها، بل ما هو حرام خارجها يصبح أشدَّ حرمة فيها، إلا أنه ستأتي عليك (ليال عشر) كما أخبرناك من قبل، وها نحن نخبرك الآن بمزيد من الإيضاح أنها قادمة عليكم في مكة المحرّمة نفسها.

يبدو أن الصحابة كانوا يظنون أن مشركي مكة لن يؤذوهم في مكة مهما عارضوا الإسلام وكرهوا التوحيد، لأنه إذا كان القتل وسفك الدماء والفساد والقتال حراما خارج مكة، فهو أشدُّ حرمة فيها بحسب عقيدتهم لأنها حرمٌ؛ فصحّح الله تعالى أفكار المسلمين وأخبر رسوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي برغم عقيدتهم هذه فإن حرمة مكة لن تحميك ولا أتباعك من إيذائهم، بل ستُعتبرون حِلاً في هذا الحرم. لا شك أنه لا يجوز قتل أي شيء فيها، ولا يجوز صيد أي حيوان هنا، إلا أنك تتعرض فيها للأذى أنت وأتباعك بيد أهلها المؤمنين بحرمتها وقداستها.

والمعنى الثاني للحِلّ هو الهدفُ والغرض الذي يُرمى إليه، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أنك ستصبح عرضةً لكل سهم.. أي أنهم لن يتعرضوا لشرفك ومالك فحسب، بل سيصبّون عليك كل أنواع الظلم. هناك فرق بين الظلم وبين كل أنواع الظلم. لا شك أن الظلم أمر شنيع في حد ذاته، ولكن الذي يرتكب كل أنواع الظلم ويقع في كل أنواع السيئات يصبح أظلم الظالمين. والله تعالى يخبر هنا أن مشركي مكة لن يضطهدوا المسلمين فحسب، بل يصبّون عليهم كل صنوف العذاب، ويطلقون إلى صدورهم كل سهم بأيديهم. ومثاله ما نراه اليوم فإن العلماء كانوا مغرمين بفتاوى التكفير قبل تأسيس جماعتنا أيضا، وظلوا يصدرونها على مرّ العصور، فتارة كفّر أهل السنة الوهابيين، وأخرى كفّر

الوهابيون أهل السنة، وتارة أفتى أهل الحديث بكفر الديوبنديين*، وأخرى أفتى الديوبنديون بكفر باقي فرق المسلمين وارتدادهم؛ ولكن منذ أن أقام الله الأحمدية فإن كل سهم يطلقه غيرنا من المسلمين إنما يُصوّبونه إلينا نحن الأحمديين، فالآن لا يكفِّر السنةُ الشيعةَ، ولا يعتبر الشيعةُ السنةَ ملحدين زنادقة، وإنما اتحد الجميع وانبروا لمعارضة الأحمدية متخذين جماعتنا هدفًا لكل سهم. الواقع أنه إذا شعر القوم أن شخصًا سينال القوة ويقضي على قوتهم في يوم من الأيام، فكلهم ينسون خلافاتهم ويتحدون بعزيمة رجل واحد للقضاء عليه. وهذا ما قد بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي أن كل أنواع الاضطهاد التي لم يرتكبها أهل مكة من قبل و لم يروْها سوف تُصَبّ عليك وعلى جماعتك الآن من قِبَلهم. لا شك أن أهل مكة مختلفون فيما بينهم أحزابا وفرقا، ولكنهم سينسون اختلافاتهم من أجل معارضتك، ويتحد الجميع على هدف واحد: أن يرموا إليك وإلى أصحابك كلّ سهم من سهام الظلم والجور.. ويصبّوا عليكم كل أنواع التعذيب.

ما أروعَ هذه النبوءةَ! حيث لم يخبر الله تعالى أن الكافرين سيضطهدون المسلمين فحسب، بل أشار أيضًا إلى أن ظلمهم سيكون بمختلف الأشكال.

والمعنى الثالث للحِلّ: النازلُ بالمكان، وعليه فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أنك ستتعرض لظلم أهل مكة بحسب نبوءة الليالي العشر، فتضطرّ للهجرة من هذه البلدة، ثم تنـــزل بها فاتحا في نهاية المطاف، ولكن لن تنـــزل فيها لتقيم فيها، بل سيكون نـــزولك فيها مؤقتا. وكأن الله تعالى قد قام هنا بشرح الليالي العشر والفجر كليهما، ثم أشار إلى الفجر الذي يأتي بعد الليلة الحادية عشرة.

ما أدلَّ هذه الآيةَ على الإيجاز القرآني المعجز! ففي جملة قصيرة تنبّأَ القرآن بنبوءتين؛ نبوءة الهجرة ونبوءة فتح مكة. فقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ لا يشرح الليالي العشر فحسب، بل يشير أيضًا إلى الفجر الذي يطلع بعد الليلة الحادية عشرة، حيث أخبر أن سنذهب بك من مكة بسبب هذه المحن، ثم نعود بك إليها فاتحًا.

والمعنى الرابع للحِلّ: الاسمُ من تحليل اليمين أي القَسَمِ، وعليـــه فقولـــه تعالى

* نسبة إلى "ديوبند" مركز الثقافة الدينية والعلمية بالهند. (المترجم)

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني أننا سوف نُحِلُّ لك هذا الحرم بعض الوقت.. بمعنى أن مكة كانت حرمًا كحُرمة الفعل الذي يحلف المرء أنه لن يفعله، ولكنا سنحلّ لك هذا الأمر الحرام الممنوع مثلما يجوز للحالف تحليل يمينه بأداء الكفارة، وذلك لأن أهل مكة سيستوجبون العذابَ بشرورهم، فنأذن لك بالهجوم على مكة لعقابهم. وكأن الله تعالى يقول هنا: لأن أهل مكة قد اعتبروكم حِلاً في حَرَمِها، لذا سنسمح لك بالهجوم عليهم فيها. لو أن هؤلاء لم يضطهدوك فلربما أدخلناك في هذه البلدة سِلْمًا، ولكنهم ما داموا قد أحلّوا بلد الله الحرام لأنفسهم، فسوف نحلّه لك أيضا بعض الوقت لنذلّهم ونخزيهم فيه، وسيكونون هم المسؤولين عن كل ذلك. وكأنّ الآية تتضمن نبوءتين: حيث أنبأ الله تعالى رسوله ﷺ أنك لن تدخل هذا البلد فاتحا فحسب، بل سنُحلّه لك بعض الوقت، ليذوق أهله الخزي والهوان عقابًا على فظائعهم.

والمعنى الخامس هو أن نعتبر الغرضَ من الحلّ هنا: استعارة، وعليه ستعنى الآية أنك أنت الغاية من هذه البلدة.. أي كنت محطّ آمال عند أهلها. ذلك أن الرمي يعني إطلاق السهم، كما يُستعار للإشارة إلى النبوءات التي تتم قبل ظهور مأمور من عند الله تعالى؛ فالمراد من الآية أن الأمور التي أدت إلى حرمة هذه البلدة إنما كانت توطئة لظهورك، كمجيء إسماعيل عليه السلام إلى وادي مكة، وانجذابِ العرب إليها بشكل خارق، وتحوُّلِها إلى مدينة عامرة، ثم تطهيرِها من الفتن، وحمايتِها من صوْل الأعداء، ووقايتِها من تأثير الأديان الأخرى. فكل هذه المزايا توفرت في هذه البلدة من أجل ظهورك فيها، ولكن الغريب أن أهل مكة مع اعترافهم بحرمتها وعظمتها لا يفهمون الغاية التي من أجلها كتبنا لمكة هذا التعظيم الخارق. لا شك أنها بلدة مقدسة، ولكنك ﴿حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نشهد بهذه البلدة أنك الغاية منها؛ فإن البنان الذي لم يزل يشير إلى أحد – منذ زمن إبراهيم عليه السلام – إنما كان يشير إليك أنت، وكل واقعة وقعت في هذه الفترة إنما كانت تومئ إليك أنت، وكل آية نـــزلتْ فيها كانت تهدي الناس إليك أنت، ولكن حين ظهرتَ مِن هذه البلدة خالفَك أهلها، مع أنك كنتَ الغاية منها، ومن أجلك كنا فعلنا كل هذا.

فالمفهوم المفصّل لهذه الآية: أننا نقدّم كشهادة مكة التي سيتعرض فيها المسلمون لأنواع الاضطهاد.. أي أن المؤامرات المنظمة التي أشرنا إليها من قبل سوف تشهدها مكة نفسها، فمع أن أهلها يؤمنون بأنه حرام فيها صيد حيوان أو قتل إنسان وإثارة فتنة وفساد وقتال، إلا أنهم سوف يؤذونك فيها وأتباعَك بأنواع الأذى غير مكترثين بحرمة هذه البلدة المقدسة. وكان هذا شيئا محيرًا للصحابة. الواقع أن ضرب الكفار وأذاهم لم يحير الصحابة بقدر ما حيّرهم الخبر أنهم سيُضربون في حرم مكة. ومن فطرة الإنسان أن يتألم بشكل غير عادي بسبب الأذى الذي يصيبه ممن لا يتوقع. ومن القصص الشهيرة أن المِلِكَ أمر برجم الحسين بن منصور الحلاج، فأخذ الناس في رجمه، فظلّ الحلاج صامتا ولم يتأفف على إيذائهم الشديد. فمرّ الشبلي من هناك، ووجد الناس يرجمونه، فرماه بوردة مضطرًا. فلما لمست الوردة بدن الحلاج صرخ صرخة عالية. فقيل له: لم تصرخ برشق الحجارة، وصرختَ بضرب وردة! فأجاب: الحجارة قد بدتْ لي ورودا، ولكن وردة الشبلي بدت لي حجرا، إذ لم أكن أتوقع ذلك منه. لا شك أنه ضربني بوردة، ولكني لم أتوقع منه أن يضربني، لذلك كان وقع وردته أشدَّ من الحجر.

لقد كان أهل مكة يؤمنون أن إيذاء أحد أو ضربه أو قتاله فيها ظلم عظيم ومعصية كبرى، لأنها مقام مقدَّس وقداستها تقتضي ألا ترتكب هذه الأعمال الوحشية فيها مطلقا. وبالفعل ظلوا عاملين بحسب عقيدتهم هذه قرنًا بعد قرن، محافظين على حرمتها وتعظيمها كل المراعاة، وكانوا يحرّمون القتال والقتل وسفك الدماء في حدود الحرم تحريما قطعيا. فكانت القبائل تتقاتل خارج الحرم ضاربةً عنق بعضها البعض ومتعطشةً لدماء بعضها البعض، ولكنها إذا دخلت حدود الحرم انتهت من القتال، فكانوا يطوفون بالكعبة جنبًا إلى جنب وكتفًا إلى كتف وهم يردّدون: لبيك اللهم لبيك، ثم يمشون في شوارعها معًا، دون أن يجرؤ أحدهم على أن ينظر إلى الآخر بغضب داخل الحرم. ولكن هؤلاء المؤمنين بحرمة مكة استشاطوا غضبًا بسبب الإسلام، واستلّوا السيوف على رسول الله ﷺ والمسلمين في مكة وفي حَرَمِها ضاربين بعقائدهم عرض الحائط، وقرروا بالإجماع تضييق الخناق على

المسلمين وتعذيبهم وقتلهم ليردّوهم عن دينهم، متناسين ما إذا كان هذا المكان حَرَمًا أم غير حَرَم!

هذا القرار الجماعي من قبل أهل مكة وداخل حدود الحرم قد أذهل المسلمين، شأن وردة الشبلي التي أذهلت الحلاج. كان الحلاج يتوقع الحجارة من الآخرين، ولكنه لم يتصور قط أن الشبلي سيجرؤ على رميه ولو بوردة، فلما ضربه الشبلي بها كان وقعها عليه أشد إيلاما من الحجارة. لو أن المسلمين ضُربوا وعُذّبوا في الطائف وغيرها من المدن لم يتعجبوا، لِعِلْمهم أن جماعات الأنبياء تتعرض للاضطهاد دائمًا، ولكنهم كانوا يظنون أن أهل مكة لن يفعلوا بهم هذا بسبب عقيدتهم بحرمة مكة، فدُهشوا حين اتخذهم أهلُها الكافرون هدفًا لظلمهم. كان أهل مكة مؤمنين بحرمتها وقداستها منذ عصر إبراهيم عليه السلام. علمًا أن الفترة ما بين النبي ﷺ وعيسى عليه السلام هي ٦ قرون، وبين عيسى وموسى ١٣ قرنا، وبين موسى وإبراهيم ٦ قرون، وهذا يعني أن أهل مكة كان يؤمنون بحرمتها منذ ٢٥٠٠ عام، ويقولون إن ضرب أحد أو قتله أو ظلمه في هذا المكان معصية كبرى. فكيف يُتوقع منهم بعد هذه العقيدة الطويلة المدى أنهم سينقضّون على المسلمين فجأة، ويتخذون نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وأحرارهم هدفًا لفظائعهم، مشحّذين أسنانهم عليهم. هذا لم يتوقعه أحد، ولكن هذا ما وقع بالفعل؛ حيث استهدف أهلُ مكة المسلمين في تلك البلدة المحرمة بظلمهم، ضاربين بعقيدتهم هذه عرض الحائط.

ومن حيث المعنى الثاني للحلّ: أنك ستُجعل في هذه البلدة هدفًا لكل سهم، أي ستصبّ عليك وعلى جماعتك كل صنوف الظلم. نجد في الدنيا أن ذوي القلوب الرحيمة أيضا يعاقبون في ثورة الغضب أحيانا، أو يرتكب المرء عملاً وحشيًا من فورة غضبه العابرة، ولكن تعذيب أهلِ مكة للمسلمين بأنواع الظلم طويلاً كان أشدّ إيلاما من القتل، وكان ذلك مستبعَدا جدا منهم إذ كانوا يؤمنون بحرمة تلك البلدة منذ ٢٥ قرنا. ولكن الله تعالى قال لرسوله ﷺ سلفًا لا تظنوا أن القوم سيؤذونكم إيذاء عابرا، بل سيصبّون عليكم كل ظلم ويرمون إليكم كل سهم،

وسيتخذ كل منهم نحوركم غرضًا لسهامه، سيوقع بكم كل فظيعة. وبالفعل قد أكّد كفار مكة صِدق هذه النبوءة القرآنية بفظائعهم البشعة.

لا شك أن المرء يتعرض للظلم، ولكن من قبل الأعداء. المعارضة الدينية إنما تكون من قبل العلماء عادة، ولا يعارض الآباءُ والأمهاتُ والإخوانُ كثيرا نتيجة الاختلاف في الدين، بل لو غيّر ابنهم دينه قالوا: كل امرئ حرٌّ في رأيه ودينه، ولا ندري ما هو الحقّ، أو قالوا: لقد أخطأ ابننا في اعتناق هذا الدين، ومن ذا الذي لا يخطئ؟ فالناس عند الاختلاف الديني يقفون عادةً بجانب أولادهم أو إخوانهم مبررين موقفهم بشتى الأعذار والحيل بدلاً من صبّ الظلم عليهم. ولكن الله تعالى يخبر المسلمين هنا أنه لن تعود أمهاتكم أمهاتٍ لكم، ولن يبقى آباؤكم آباء لكم، بل سيجعلونكم هدفا لكل ظلم، ويطلقون إليكم كل سهم. وبالفعل نرى أن المسلمين في زمن الرسول ﷺ لم يتعرضوا للظلم من العلماء والكهان وعبدة الأصنام فحسب، بل ظلمهم الجميع حتى الآباء والأمهات.

آمن بالنبي ﷺ فتى لم يبلغ أشُدَّه بعد، فغضبت أمه وفصلت أواني أكله وشربه، ثم ظلت تنتظر أن يرتدع ابنها عن الإسلام، ولكنه لم يتأثر من معاملتها القاسية هذه. فنصحه أبواه كثيرا، ولكنه لم يرتدَّ عن الإسلام، فضربوه، فرفض ترك الإسلام بشدة. فقالا له يوما: اخرُجْ من البيت، فخرج وهاجر إلى الحبشة بعد تعرُّضه لأنواع الأذى في مكة. (أسد الغابة: خالد بن سعيد بن العاص)

وعندما بلغ خبرُ واقعة سورة النجم -أو بحسب بحثي: حين بلّغ أهلُ مكة خبر القصة الملفَّقة* حول سورة النجم إلى الحبشة- رجع عديد من المسلمين من هناك، وكان من بينهم ذلك الصحابي. فذهب إلى أهله ظنًّا منه أن غضبهم قد هدأ، فاستقبله أبواه بحفاوة واحتضنوه وقبّلوه ظانّين أنه رجع إلى البيت وارتد عن الإسلام بعد أن عاد إلى صوابه! بينما ظنّ الفتى أن فراقه عدة شهور لا بد أن أثّر في والديه

* أي حادثة الغرانيق المكذوبة. لمعرفة تفاصيلها يراجع تفسير الآية ٥٣ من سورة الحج في هذا التفسير (المترجم)

وليّن قلبيهما وملأهما بمشاعر الرحمة. فما إنْ جلس حتى قالت أمه: نحمد الله أنك عُدتَ إلى الصواب، وأدركت أنك كنت قد أخطأتَ بالانضمام إلى جماعة هذا الصابئ –معاذ الله– فأرجوك أن لا ترجع إليه ثانيةً. فقام الفتى من فوره وقال لأبويه: لا شك أنكما والدَيَّ، ولكنني سأضحّي بكل عزيز من أجل محمد رسول الله ﷺ، غيرَ آبهٍ بأية مصيبة مهما اشتدت. ولو تفوّهَ أحدكما الآن بمثل هذا الكلام حول محمد رسول الله ﷺ فلن أعتبركما والدَيّ. فقالا: إذن، لم تعُدْ ابنًا لنا أيضًا. فخرج الفتى من بيته و لم يرَ وجهَ أبويه بعد ذلك قط.

فترى من أين انطلقت هذه السهام؟ لقد انطلقت من حيث لا يتوقعها المرء في أي حال. لقد انطلقت من أيدٍ تتلقى السهام بصدورها عادةً دفاعًا عن أولادها.

هذا مثال لمعاملة أبويْن مع ابنهما، والآن أقدم مثالاً على معاملة الأعمام: كان لرسول الله ﷺ عدة أعمام، ولكنهم لم يؤذوه مباشرة، بل حرّضوا عليه الآخرين، إلا عمه أبو لهب، فكان يؤذي النبيّ ﷺ أشدّ الأذى. فكان السهم الذي رمى به النبيَّ ﷺ أشدَّ إيلاما من أي سهم آخر! كانت ابنتا الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم متزوجتين من ابنين لأبي لهب، فلما أعلن ﷺ دعواه عارضه أبو لهب وقال لابنيه: طَلِّقا بنتي محمد إذا أردتما البقاء معي، فطلّقا بنتيه ﷺ. (الإصابة: باب أم كلثوم)

وهذا يعني أن أقارب النبي ﷺ أيضًا لم يتورعوا عن جرح مشاعره تجاه بناته التي تُعتبر أشدّ مشاعر المرء حساسيةً. لقد كان هناك عمٌّ ربّى النبي ﷺ في صغره، وكان هذا العمّ "أبو لهب" قد عارضه ﷺ وعذّبه أشدّ العذاب فلم يرض إلا بتطليق بنتيه ﷺ.

أما الأصدقاء فتكون بينهم صداقة حميمة، ولكن مَن كان يُسلِم بين أهل مكة كان يفقد أصدقاءه إذ كانوا يتخلّون عنه. كان العرب أصدقاء أوفياء جدا، فكانوا يضحّون بأنفسهم من أجل الصديق عند الحاجة، ولكن أهل مكة أبغضوا النبيّ ﷺ بغضًا شديدًا حتى لم يبالوا بصداقاتهم وتخلّوا عن أصدقائهم الحميمين الأوفياء. كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه ابنَ أحد رؤساء مكة، وقد تعرّض لأنواع الأذى نتيجة إسلامه، وفي الأخير خرج من مكة مهاجرًا، فلقِيه في الطريق أحد أصدقاء أبيه

الحميمين، وقال له: أين تذهب؟ قال: أهاجر من مكة لأن أهلها ظالمون. فاغرورقت عين السيد وعانقه وقال: كيف يمكن أن يتركها ابن صديقي هكذا؟ كلا، أنت في جواري منذ اليوم. ثم أتى به إلى الكعبة وأعلن عن حمايته له. وكان أهل مكة يراعون حقّ الجوار جدًّا، فلم يتعرضوا لعثمان بسوء بعدها. ثم جاء موسم الحج واجتمع الناس في منى كالعادة، وجمَعهم مجلس كان لبيد الشاعر الفحل الشهير ينشد فيه الشعر. فقال فيما قال: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"، قال عثمان: قد صدقتَ. فلما سمع لبيد شابًا يؤيده فيما قال استشاط غضبًا وقال لأهل المجلس: هل أنا بحاجة إلى تصديق شعري من أولادكم؟ ماذا حلّ بكم يا أهل مكة؟ فنظر القوم إلى عثمان شزرًا وزجروه زجرًا. ثم استأنف لبيد وقال: "وكل نعيمٍ لا محالة زائل". فلم يلبث عثمان أن قال: كذبتَ واللهِ، فإن نعيم الجنة لا يزول. فكاد لبيد يتميّز غيظًا وقال: لن أنشدكم الشعر بعد ذلك. فمال الناس إلى عثمان وأوسعوه ضربًا ولَكْمًا حتى فقأوا إحدى عينيه. فقال له السيد الذي منحه الجوار: أيها السفيه، ما دفَعك إلى هذا الحمق حتى ضيَّعت عينك؟ فقال له عثمان: أنا لست بحاجة إلى جوارك منذ الآن. إنك تبكي على ضَياعِ إحدى عينيّ! والله إن عيني الأخرى أيضا لَتضطرب لِتُفقأ في سبيل الله. (أسد الغابة: عثمان من مظعون)

فترى أن المسلمين لم تنفعهم صداقاتهم في مكة شيئًا، ولم ينصرهم صديق بعد "جريمة اعتناق الإسلام"! بل صُوّبت إليهم السهام من قِبل الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين يرجو المرء منهم الحب والوفاء والأنس والوئام وحسن المعاملة والمواساة في ساعات المصائب والآلام، حتى ترك الأزواج زوجاتهم وانفصلت الزوجات عن أزواجهن، وقطع الآباء صلاتهم عن أولادهم، وقطع الأولاد علاقاتهم عن آبائهم. ثم إن تعذيب المسلمين لم يكن من نوع واحد، بل صُبّت عليهم الفظائع من كل نوع وشكل؛ لقد أُلقوا في الشمس في الرمال الحارقة، ورُبطت أرجلهم ثمّ سُحبوا في شوارع مكة على الحجارة والحصى كما يُسحَب حيوان ميت، فكانت أبدانهم تُجرح وتنـــزف دمًا. لقد ضربهم الكافرون ضربًا مبرحًا، ووضعوا على صدورهم حجارة ثقيلة لينكروا وحدانية الله تعالى. وقد قتلوا كثيرًا

منهم بالحراب، حتى لم يرتدع هؤلاء الظالمون عن قتل المسلمات بضربهن في فروجهن بالرماح. لقد صفدوهم بالأصفاد، وسبّوهم سبًّا فاحشًا وطردوهم من الأوطان، واتّخذوا كل طريق وحشي بشع لقتلهم. ففي بعض الأحيان ربطوا إحدى رجلي المسلم ببعير والأخرى ببعير آخر، ثم ساقوا البعيرين في اتجاهَين مخالفَين، وشقّوه قطعتين بين هتاف الفرح والابتهاج. (الإصابة في تمييز الصحابة: سمية بنت خباط، وتفسير الرازي)

فما من إيذاء إلا وصُبَّ على المسلمين من قبل أهل هذه البلدة المحرمة، وإليه أشار الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي يا محمد، ستُجعل هدفًا لكل أنواع السهام في هذه البلدة المحرّمة نفسِها. سوف تُرفع عليك كل يد، سواء كانت يدَ أمٍّ أو عمٍّ أو أيٍّ من الأقارب الآخرين. وسوف يصوب إليك كل سهم.

ثم انظروا كيف تضمن هذا القول الرباني الوجيز: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ نبوءة رائعة أخرى، وتفسيرًا لطيفًا لقوله تعالى ﴿لَيَالٍ عَشْرٍ﴾.. حيث أخبر النبي ﷺ أنك ستنـــزل في هذه البلدة في يوم من الأيام، والواضح أنه ما كان للنبي ﷺ أن ينـــزل في مكة إلا إذا تركها أولاً؛ إذًا فبكلمة ﴿حِلٌّ﴾ الوجيزة أخبر الله نبيه ﷺ بالهجرة، مبينًا أنك ستتعرض للأذى في مكة حتى تضطر للهجرة منها. وهذا الأمر كان محيّرا جدًّا في ظل تلك الظروف؛ إذ لم يكن مورد دخل أهل مكة عندها إلا الحجيج الوافدين. كانوا يعيشون هناك كمجاورين لبيت الله فحسب، وكان واجبهم أن يدعوا الناس إليه لا أن يطردوهم منه. فمن ذا الذي كان بوسعه يومها أن يقول إن هؤلاء المجاورين سيطردون النبي ﷺ وأصحابه من مكة في يوم من الأيام؟ هذا كان محالا حسب القياسات الإنسانية. فكما قلتُ: كان أهل مكة مجاورين للبيت، وكان عيشهم متوقفا على أن يفِد الحجيج إلى مكة، فلم يكن ليخطر ببال أحد أن عداء الإسلام سيعميهم لدرجة أنهم يضطرّون النبيَّ ﷺ وأصحابَه إلى الهجرة من هناك. ولكن الله تعالى أخبر المسلمين سلفًا أن هذا المستحيل سيقع حتمًا. تظنون أن أهل مكة لن يخرجوكم منها، ولكن كونوا على يقين أن ذلك اليوم قادم، حين تضطرون للهجرة من مكة. وليس هذا فحسب بل

سترجع يا محمد إلى هذه البلدة ثانية، بل هو خبر آخر وهو أن هذه البلدة التي ستخرج منها مع صديقك ستعود إليها مع ١٠ آلاف من أصحابك فاتحا منتصرا. وكل هذه المعاني متضمنة في قول الله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. إذن، فبجملة واحدة أنبأ الله تعالى عن الهجرة، وعن فتح مكة أيضا. لقد أخبر بها عن طلوع الفجر الذي يلي الليالي العشر، وكذلك عن الفجر الثاني الذي يطلع بعد الليلة الحادية عشرة، والذي كان سيبدأ بغزوة بدر ليكتمل بفتح مكة.

كما أخبر الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن عاقبة ظلمهم لن تكون خيرًا لهم. لو لم يرتكبوا هذه الفظائع فربما جئنا برسولنا في هذا البلد سِلْمًا، ولكنهم ظلموا وأحلّوا بلد الله الحرام، ولذلك سنسمح لنبيّنا أيضًا بأن يدخله بقوة السيف بعض الوقت، وستقع مسؤولية ذلهم وخزيهم على أنفسهم.

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنك الغاية وراء إنشاء هذه البلدة؛ بمعنى أن الأنباء منذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- قواعد الكعبة، تشير إليك أنت، حيث أخبرنا منذ ذلك الوقت ببعثة نبي عظيم سيتلو على الناس آيات الله ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة.. إذ دعانا إبراهيم عليه السلام عندها قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٣٠). إذًا، كانت هذه النبوءة تخص النبي ﷺ، وكان هو نفسه الغاية وراء إنشاء هذه البلدة، ولذلك يقول الله تعالى هنا كيف يمكن ألا تتحقق الغاية التي من أجلها تمّت هذه الأمور كلها؟ كان تحقيق هذه الغاية ضروريا جدا، لأن قدوم إسماعيل عليه السلام إلى موقع مكة، وتوجُّه العرب إليها، وبقاءها محفوظة من أنواع الفتن ومن تأثير الأديان الأخرى.. كل هذه كانت دلائل على أنك الغاية من هذه البلدة، وأن الله كان يريد أن يبعثك في الدنيا. كانت مكة واديا غير ذي زرع، ولم تكن الأمة الساكنة حولها متحضرة مهذبة، بل كانوا لصوصًا ظالمين لا يخضعون لقانون، إنما كان شغلهم الشاغل القتال وسفك الدماء، ولكن عندما يقترب هؤلاء الظالمون اللصوص السفاكون من مكة كانوا يغمدون سيوفهم معلنين: هذا مكان لا يجوز فيه الحرب. ثم إن العرب كانوا فقراء يعيشون على الكفاف، كانوا محرومين من

تسهيلات كثيرة في الأكل والشرب. ولكن كلما طلع عليهم شهر ذي الحجة قصدوا مكة راكضين إبلهم خلال الفيافي والبراري الخالية من عشب أو ماء ليحجوا بيت الله الحرام. ثم إن الله تعالى قد حفظ مكة من كل الآفات والبلايا، وخيّب كل عدو أراد الهجوم عليها. لقد زحف إليها أبرهة لهدم الكعبة، فأنـــزل الله عليه وعلى جنوده عذابا من السماء وخيّبه في نواياه. فما أروعَها مِن آية أظهرها الله تعالى لحماية مكة، مؤكدًا أن للبيت ربًّا يحميه! كان اليمن هو القطر الخصب العامر الوحيد في الجزيرة؛ فزراعته جيدة ومحاصيله وفيرة، وكان أبرهة حاكمًا عليه من قبل مِلكِ الحبشة، وكان عنده جيش كبير، فخرج بعشرة آلاف جندي ليدُكّ مكة دكًّا، ولكن تفشّى – بأمر الله تعالى – مرض الجدري في جيشه، فأخذ جنوده الأفارقة يموتون واحدا بعد الآخر، لأن الجدري يفتك بالأفارقة فتكًا شديدًا، فمن أصيب به منهم مات حتما. علمًا أن ثمة أمراضًا تفتك ببعض الشعوب خاصة، فالجدري مثلاً فتّاكٌ بالأفارقة، والإسهال مهلِكٌ للأوروبيين. في بلدنا يخرج الفلاح لحراثة الأرض، فيلقاه صاحبه ويسأله عن حاله فيقول: الحمد لله أنا بخير، فقط عندي إسهال. فهو لا يبالي بالإسهال مطلقا. أما الأوروبي فلو أصابه الإسهال طارت نفسه فزعا وأيقن أن أجله قد أتى. وأما الجدري فهو مدمّر للأفارقة، وإذا سمع أحدهم اسمه طار صوابه. وقد هيّأ الله تعالى من الأسباب ما جعل الجدري يتفشى في جيش أبرهة، فبثّ فيهم ذعرًا شديدًا. الواقع أن اقتحام مكة لم يكن صعبًا عليهم إذ جاءوا بالعُدّة والعتاد ولم يكن هناك جيش عَرَمْرَم يواجهونه؛ إذ كان أهل مكة عُزّلاً، ولكن ما إن تفشى الجدري بين هؤلاء الأفارقة حتى ألقوا السلاح يائسين. وعندما مات بعضهم، وقعت الفوضى في الجيش، فلاذ الجميع بالفرار مذعورين، وهلَك معظم الجيش في طريقهم إلى اليمن، وهكذا خيّب الله تعالى أبرهة في مسعاه، فلم يستطع مهاجمة مكة.

لقد أشار الله تعالى إلى كل هذه الأحداث بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. فقال عليهم أن يفكروا لماذا فعلنا كل هذا. إنما فعلناه لتحقيق الدعاء الذي دعا به إبراهيم قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.. إذ كيف يمكن أن يظهر ذلك الموعود الذي كان الغاية من تأسيس هذه البلدة منذ ٢٥٠٠ سنة، فيخذله الله ولا ينصره؟ ولذلك قال ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نقدّم كشهادةٍ هذا البلد، وأنت غايته، لأن هذا البلد صار أعظم شأنًا بوجودك فيه؛ إذ قد تجلّت عظمته وجلاله على يدك في الحقيقة.

إذن، فمفهوم هذه الآية كالآتي:

أولا: نقدم كشهادةٍ مكةَ التي سيتعرض فيها المسلمون لأنواع التعذيب.. أي أن هذه البلدة نفسها ستكون دليلاً ساطعًا على المؤامرات التي يدبرها معارضو الإسلام سرًا، للمعارضة المنظمة المشار إليها في السور السابقة.

قد يقال هنا إن الإنباء عن المعارضة أمرٌ اجتهادي، لأن كلّ مدعٍ يلقى المعارضة، إذ لا يؤمن به الناس فور سماع كلامه بلا معارضة.. إذ لا بد أن يخالف عقائد الناس، وبالتالي لا بد أن يلقى منهم المعارضة. فكيف يقال إن الإنباء عن معارضة المكيين للنبي ﷺ والمسلمين نبوءة عظيمة؟ ما دام محمد عرض عليهم أمرا جديدا فلا بد أن يعارضوه!

والجواب: ليس صحيحا أن كل مدّع يلقى المعارضة. لا شك أن مَن يدّعي امتلاك متاع مادي ليس له في الواقع، فلا بد أن يعارضه صاحب المتاع، ولكن ادعاء المرء تلقى الوحي من الله تعالى لا يثير معارضة الناس بالضرورة. فمثلا لو ادعى المرء امتلاك بيت شخص آخر وحاول الاستيلاء عليه، فلا شك أن صاحب البيت سيقاتله، ولكنه لو قال لغيره إني أتلقى الوحي من الله تعالى فلن يغضب هذا، وغاية ما يقول إنه فقد العقل ويهذي. فمن الخطأ تمامًا الزعم أن كل من يدعي الوحي يلقى المعارضة حتمًا. فذات مرة كتب لي "ظهير الدين أروبي" -الذي كان يدعي بأنه المصداق لنبوءة "المصلح الموعود" الشهيرة- وقال لي ثائرًا: إني أنشر الإعلانات والمنشورات ضدك منذ فترة طويلة، ولكنك لا ترد عليها بشيء! أنا لا أقول أن تصدّقني، ولكن لماذا التزمت الصمت؟ إذا كنت لا تستطيع فعل شيء فعارِضْني على الأقل. فكتبتُ له في الجواب أن المعارضة أيضا هبة ربانية، وهي من

علامات الصادق. والله تعالى لا يريد أن يهبك هذه الميزة، فمهما تمنيتَ فلن يهبّ الناس لمعارضتك. فالواقع أن من الخطأ الزعم أن كل مدّعٍ يلقى المعارضة! إنها لا تتيسر بسهولة، لأنها هبة وفضل من الله تعالى. فالأحمدية مثلاً تلقى المعارضة في كل بلد في العالم، ولكن البهائية لا تواجه هذه المعارضة مع أن أهلها يؤمنون بنسْخ القرآن الكريم، ويدعون الناس إلى شريعة البهاء. إن البابيين منهم فقط تلقوا في البداية المعارضة في إيران، ولكن سببها أنهم تدخّلوا في الأمور السياسية. إن غيرنا من المسلمين يرون ويعلمون كل هذا من قبل البهائيين، ومع ذلك لا يعارضونهم، بل يعانقونهم، أما الأحمدية فحيثما ذكرها قام الناس لمعارضتها.

فثبت خطأ زعم المعترضين أن الإنباء عن المعارضة كان أمرًا قياسيًا اجتهاديا من محمد ﷺ بحجة أن إيذاء الناس له ﷺ ولأصحابه كان حتميا.

ثم لو كان هذا الأمر مجرد اجتهاد فحسب، فلماذا لم يتنبأ النبي ﷺ عن المعارضة خلال السنوات الثلاث بعد الدعوى؟ لماذا لم يخمِّن في بداية الدعوة أن أهل مكة سيعارضونه بشدة؟

ثم إن المعارضة نوعان: معارضة بدون إثارة، ومعارضة بإثارة. ومثال النوع الثاني أن يخطط شخص لسرقة بقرة صاحبه أو الاستيلاء على بيته في يوم محدد، ثم بعد التخطيط ينبئ الناس أن فلانا سيقاتلني في يوم كذا، فقوله ليس من النبوءة في شيء، لأنه هو مَن سَبَّبَ هذا الفساد والقتال؛ لأنه خطط أولاً لإلحاق الضرر بالآخر، ثم أخبر الناس أن ذلك سيقاتله. ولكن أحدا إذا كان يعمل على الصلح بين الناس، ويعلّمهم الحب والوئام، فلا تُتَصوَّر معارضته. فقيام المرء بعمل يحرّض الناسَ على معارضته شيءٌ، أما معارضة الناس لشخص مسالم فشيء مختلف تمامًا. فإنك إذا حاولت الاستيلاء على بيت أحد فلا بد أن يقاتلك، وبوسعك أن تخبر الناس عن وقوع هذا الفساد قبل موعده، ولكنك لو كنت جالسا في بيتك بهدوء، وجاء الآخر وحاول الاستيلاء على بيتك، فكيف تعلم ذلك سلفًا وكيف تخبر الناس عن ذلك مسبقًا؟ هكذا كان حال النبي ﷺ ومعارضيه. كان الرسول ﷺ يدعو إلى الصلح والوئام، ومع ذلك قد شنّر معارضوه عن سواعدهم وانبروا لمعارضته. ما هو

الجديد الذي ظهر في المسلمين بعد ٣ سنوات من دعوى النبي ﷺ حتى يهبّوا للمعارضة؟ كانوا يصلّون من قبل، ويدْعون القوم إلى الصلاح والتقوى، ويعلنون أن الله أحد، وأنه المعين الحقيقي، وأن على الإنسان أن يتوكل عليه وحده ويسأله تعالى حاجاته، وأن الكفر باطل والإسلام حق. لقد قاموا بكل ذلك منذ البداية، فما هو الشيء الجديد الذي أتوه بعد هذه السنوات الثلاث حتى ثار المكيون؟ كلا، إنهم لم يُضِيفوا عند السنة الثالثة إلى عقائدهم شيئًا جديدًا أغضبَ الكفار ودفعهم إلى معارضتهم وإيذائهم. فثبت أن الله تعالى لم يخبر المسلمين في السنة الثالثة أنكم ستُعارَضون الآن، لأن الكافرين كانوا لا يعلمون عن دينكم واعتقاداتكم جيدا من قبل، وإنما سببه أن المسلمين كانوا يزدهرون باستمرار فأدرك الكفار أن مستقبلهم مهدد، وأن عليهم الآن فعْلَ شيء.

ولكن السؤال هنا: مَن ذا الذي منح المسلمين القوة بحيث شعر الكفار أن مستقبلهم مهدد؟ الجواب الوحيد: الله تعالى، إذ ليس هذا بوسع البشر. فثبت أن نبوءة معارضة الكفار للمسلمين لم تكن أمرًا اجتهاديا أو قياسيا، بل كانت خبرًا غيبيًا من السماء أكّده الكافرون بتصرفاتهم.

ثانيا: والشهادة الثانية في قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أنك ستصبح غرضًا لكل سهم. وهذا ليس قولاً مبالغا فيه، بل كما بينتُ لقد تعرض النبي ﷺ بالفعل لكل أنواع الظلم فعلى سبيل المثال: (١) مُنع من العبادة (٢) ضُرب (٣) شُتم (٤) تعرّض للمقاطعة الاجتماعية (٥) مُنع من الطعام والشراب (٦) مُنع من التبليغ (٧) سُحب صحابته على الحجارة (٨) مُنع من الهجرة – إن الناس عندما يضربون أحدًا يقولون له: اخرجْ من هنا، أما الكافرون فكانوا يضربون المسلمين ولا يسمحون لهم بالخروج من بينهم. فلما هاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فرارًا من فظائع أهل مكة ذهب بعض رؤسائها إلى النجاشي وقالوا له: هؤلاء القوم عبيدنا الآبقون، فرُدَّهم إلينا. فأرادوا أن لا يَدَعوهم ينعمون بالراحة لا داخل مكة ولا خارجها– (٩) قتلوا المسلمات بطرق بشعة (١٠) اتهموه بتهم باطلة، فسموه مجنونا حينًا، ومُغرِضًا حينا آخر، وكذّابًا تارة، وطامعًا في الشهرة مرة أخرى،

وكاهنًا مرةً، وسارقًا لتعاليم الصحف السابقة تارة أخرى. باختصار، ليس هناك سهم إلا أطلقوه نحوه ﷺ.

ثالثا: والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أنك ستنـــزل في هذا البلد مرة أخرى.. أي أن هذه البلدة ستقدِّم شهادتين قويتين على صدق الإسلام: هجرة محمد ﷺ، ثم عودتُه إليها منتصرًا. كان الأمران مستحيلين في الظاهر عندها، لأن أهل مكة – عند نـــزول هذه السورة– إما أنهم كانوا لا يعتبرون النبي ﷺ جديرًا بالالتفات إليه، أو أنهم كانوا يحترمونه، وفي الحالتين ما كانوا ليفكّروا في طرده من بينهم. وليس هذا فحسب، بل إن النبي ﷺ نفسه كان يعتبر طردهم له مستحيلا؛ ذلك أنه ﷺ لما تلقى أول وحي رجع قلقًا إلى بيته وأخبر زوجته بما حصل، فأخذته إلى ابن عمها "ورقة بن نوفل" الذي كان عالما كبيرا بالتوراة، وذكرت له القصة. ثم إن ورقة نفسه سأل النبي ﷺ عما حصل، فأخبره النبي ﷺ بالتفصيل بما حصل معه في غار حراء، فقال ورقة: إنه نفس الملاك الذي نـــزل على موسى عليه السلام.

لا بأس لو ذكرنا هنا –ضمنيا– أن ورقة بن نوفل كان مسيحيا، وكان يدرس الصحف المقدسة بكثرة، فلو كان عيسى عليه السلام حاملَ شريعة كما كان موسى عليه السلام، لما قال ورقة: إنه نفس المَلَك الذي نـــزل على موسى، بل لقال إنه نفس المَلَك الذي نـــزل على عيسى، أو قال لم ينـــزل عليك أي ملَك، لأن عيسى قد جاء وهو المخلص الأخير للعالم، ولا نبي بعده. ولكنه ما إن سمع قول النبي ﷺ حتى قال: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نـــزلَ عَلَى مُوسَى.. أي هو نفس الملك الذي نـــزل بوحي السماء على موسى. ثم قال: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فأَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. فاستغرب النبي ﷺ من قوله، فمع أنه كان قد تلقى هذا الوحي إلا أنه قال له في حيرة: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ (البخاري: كتاب بدء الوحي).. أي كيف يمكن أن يخرجوني منها وأنا مسالم أدعو إلى الصلح وأؤدي حقوق الجميع، وليس بيني وبينهم عداء، ولا أبغي لأحد شرًّا؟ إن أقاربي وأصحابي لا يزالون في مكة، فكيف يخرجني أهلها منها؟ ثم بأي جريمة يخرجونني منها؟

فما أوجزَها من كلمات! وما أكثرَ معانيها! إن قوله ﷺ: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ" قول وجيز جدا، ولكنه زاخر بما في قلب النبي ﷺ من مشاعر وأحاسيس. إنه يعبّر عما في قلبه من صلح وسلام وحبّ من جهة، ومن جهة أخرى يبين مدى حب أهل مكة للنبي ﷺ، بحيث كان من المحال في بادئ الأمر أن يُخرجوا من بينهم إنسانا مثله. ولكن هذا ما حصل في نهاية المطاف، إذ أخرجوه رغم حبه للصلح والسلام، وتحققَ ما أنبأ الله تعالى به.

يقول المعترض إن الناس يبدون رأيهم قبل الأوان نظرًا إلى الظروف ثم يسمّونه نبأً، وأنا أسأله أن يفكر في هذه النبوءة ويرى ما إذا كان بوسع أحد في تلك الظروف – سوى الله عالم الغيب – أن يقول إن محمدا ﷺ سيضطر للهجرة من مكة يوما ما. فما كان الرسول ﷺ نفسه – ناهيك عن غيره – يتصور أن هذا ممكن. لقد ذُهل ﷺ بسماع هذا القول وقال: كيف يمكن أن أُطرد من مكة؟ وما دام النبي ﷺ نفسه لم يستوعب هذا الأمر فكيف يستوعبه غيره؟ ومع أن هذا الأمر كان محالاً في نظر النبي ﷺ، كما كان محالا بالنظر إلى أحوال أهل مكة في ذلك الوقت، إلا أن قول الله هذا قد تحقق بصدق وعدل، واضطر النبي ﷺ للهجرة من مكة نتيجة فظائع أهلها المروعة الطويلة.

كما كانت عودة النبي ﷺ إلى مكة أيضًا مستحيلة بادئَ الأمر؛ فمن ذا الذي كان يمكن أن يتصور عند خروجه ﷺ من مكةَ أن هذين الهاربين تحت جُنح الليل سوف يدخلانها في يوم منتصرَين مع جيش قوامه ١٠ آلاف جندي، حتى يصبح كبار أسيادها تحت رحمة المسلمين ليعاملوهم كيفما شاءوا؟ كلا، ما كان هذا ليخطر ببال أحد. ثم مَن ذا الذي كان يمكن أن يتصور يوم هجرته ﷺ أن هذا الشخص المطرود من مكة سيعود إليها مع ١٠ آلاف قدوسي أمام أعين هؤلاء الكافرين الذين يفرحون الآن أنهم قد نجحوا في محو الإسلام بطرده من بينهم، وسيقول لهم في هيبة وجلال: أخبِروني كيف أعاملكم الآن، فيقولون: افعلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته. غاية ما كان يمكن أن يقول بعضهم عند هجرته ﷺ: للأسف لم نتمكن من قتله، ويقول بعضهم: نِعْمَ ما حصل، إذ تخلّصْنا من هذا البلاء، لقد

اختفى عن أنظارنا الآن، ولا يهمّنا، أحيٌّ يُرزق هو أم قد مات! لقد طردناه من بلدتنا وانتهت القضية. ثم مَن كان منهم يتصور عندها أن هذا الشخص نفسه سيرجع إليهم كقائد منتصر؟ ثم من ذا الذي كان يمكن أن يتصور أنه سيرجع بهذه السرعة؟ الواقع أن المرء إذا تدبر الأمر وجد أنها آية عظيمة حقًا ترسم لنا وجود البارئ وقدرته وجبروته. لقد هاجر من مكة مهاجران تحت جنح الليل خائفينِ على حياتهما من الكفار المصممين على قتلهما، و لم تمض ثماني سنوات حتى رجع النبي ﷺ إلى مكة كقائد منتصر. لا يستطيع حتى الصعلوك أن يُعدّ عدّته في ثماني سنوات، ولكن الله أخبر هنا أن محمدا ﷺ الذي يهاجر من مكة مع صاحبه تحت جُنْح الظلام – والذي قد جعل الكافرون جائزة كبيرة لمن يأتي به حيا أو ميتا – سيرجع إليها بعد ثماني سنوات كقائد فاتح بحيث يُدمَّر مجدُ قيدار (قريش) كله. وهذا ما حصل بالفعل؛ إذ دخل النبي ﷺ مكة مرفرفًا لواء فتح الإسلام عاليًا بتأييد الله ونصرته، وتحققت النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ بكل عظمة وعلو شأن. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

فترى كيف أن الله تعالى بنفسه –وفي الأيام الأوائل للإسلام– فسّر الفجرَ الأول الذي بدأ بالهجرة، والفجرَ الثاني الكامل الذي بدأ بغزوة بدر واكتمل بفتح مكة، مبينًا أن مكة ستقدِّم شهادة أخرى على صحة أنبائنا حيث تنـــزل فيها مرة أخرى لتظهر على يدك آية عظيمة دالة على جلال الله وقدرته.

رابعا: ثم يبين الله تعالى بقوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أن مكة ظلت محفوظة منذ زمن طويل، حيث كان أهلها وثنيين غافلين عن الدين ومع ذلك حفظهم الله من أبرهة، ولكنها ستُفتح بيد محمد ﷺ قسرا، فلا يكون دخوله فيها دليلا على صدقه فحسب، بل إن دخوله فيها قسْرًا سيكون دليلا آخر على صدقه، إذ لو لم يكن محمد ﷺ صادقًا، فكيف أذِنَ الله له بدخول مكة قسرا؟ إن دخوله ﷺ فيها بهذا الشكل كان تحقيقا للنبوءة المذكورة آنفًا، كما كان دليلاً إضافيًا على صدقه ﷺ إذ أجاز الله له ﷺ ما لم يُجزْ لأبرهة. فعندما جاء هذا إلى مكة بجيشه العرمرم

دمره الله مع جيشه، ولم يسمح له بدخول مكة، وحين جاءها محمد ﷺ بجيش قوامه ١٠ آلاف جندي.. أذن الله له ولجيشه بدخولها.

علمًا أن دخول النبي ﷺ في مكة إذا كان تحقيقًا لنبأٍ، فإن دخوله فيها بحد السيف كان تحقيقا لنبأ آخر. فلو أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ ارجعْ إلى مدينتنا، فدخلها سلمًا لتحققت بذلك نبوءة واحدة فقط، ولكن دخوله ﷺ يوم الفتح على ذلك النحو قد حقق نبوءتين؛ إذ لم يدخلها فحسب، بل دخلها مستحلاً حُرمتَها كما ورد في النبأ. لم يسبق في تاريخ مكة الممتد إلى ٢٥٠٠ قبل النبي ﷺ مثالٌ واحد أن نجح شخص في فتحها عنوةً؛ لقد جاء أبرهة ليدخلها بالقوة، فدمّره الله، أما محمد ﷺ فقال الله له ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي ستستبيح حرمة هذا البلد، وسوف تفتحه بحد السيف. لا شك أن أهل مكة يؤمنون أن لا أحد يقدر على فتحها عنوة، ولكنا نعِدك أنا لن نرجع بك إليها فحسب، بل نرجع بك بحد السيف لكي نبطل عقيدتهم هذه، ولكن ليس لأن مكة ليست محمية من عندنا، بل ليعلَم الناس أنني أنا الذي قمت بحمايتها من قبل، وأنا الذي جئت بمحمد إليها بقوة السيف الآن.

خامسًا: والمعنى الخامس لقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أننا نقدّم هذا البلد شهادة على ما سبق من أمور حال كونك الغاية من تأسيس هذه البلدة.. بمعنى أننا نخبر العالم أنه ما دام الظهور المحمدي غايةَ تأسيس هذه البلدة من أول يوم، فكيف ظن الناس أن الله تعالى ينسى هذه الغاية التي لم يزل يُعِدُّ الناسَ لها منذ قرون، ولا يحققها؟ إذا كان الله تعالى قد جعل مكة مثابةً للناس في وقت لم يتم تتويجها بتاجها بعد، وإذا كان الله تعالى يهيئ الرزق لأهلها.. وإذا كان الله تعالى قد جعلها بلدة كبيرة، وإذا كان الله تعالى قد حماها من غارات الأمم، فكيف يمكن أن تنقطع هذه الآيات حين جئتَ وأنت تاجُها وغايتها؟ كلا، بل ستظهر الآيات الآن أكثر من ذي قبل، وستتحقق الآن النبوءات التي لن تكون آية حية على صدقك فحسب، بل ستزيد مكةَ عزًا وشرفًا، وستهيئ للعالم شهادةً قوية على صدق كلام الله تعالى،

لأنك غاية مكة وتاجها وموعودها الذي لم تزل تشير إليه أحداثُ التاريخ بالبنان منذ آلاف السنين. فالآن بعد ظهورك ستتجلى آيات الله تجليًا غير مسبوق.

باختصار: قد شرح الله تعالى بكلمة وجيزة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الليالِيَ العشر، ثم الفجرَ الأول الذي يليها، ثم الفجرَ الثاني الذي طلع عند انتهاء الليلة الحادية عشرة بيوم بدر وانتهت بفتح مكة. يمكن تقدير مدى استغراب الكافرين من دخول النبي ﷺ مع أصحابه في مكة منتصرا من حيث إنهم كانوا يأملون أن يرجع إليهم أبو سفيان بعد قليل بعد عقد معاهدة جديدة مع محمد. لقد ناموا هادئين بأمل أن أبا سفيان آتٍ إليهم برسالة أمن، وبينما هم في ذلك إذ دخل عليهم في منتصف الليل يحث حصانه وهو يعلن بصوت عالٍ: إن محمدا زاحف إلى مكة مع عشرة آلاف من صحابته، ولكني أبشّركم أني قد أخذتُ لكم عهدًا بالأمان، فمن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن لم يخرج لمقاومة المسلمين فهو آمن أيضا، أما من خرج من بيته وحاول مقاومتهم بالسيف فهو مسؤول عن نفسه. (سيرة ابن هشام: قصة إسلام أبي سفيان على يد العباس). فشتان بين الحالتين! لقد ذهب أبو سفيان من قِبَل مكة كسفير من أجل الصلح، ورجع ليقوم بهذا الإعلان بين القوم.

ثم دخل خالد مكة بفِرقَته من جانب، ودخل الزبير وسعد بن عبادة بفرقتيهما من جانب آخر، وأما النبي ﷺ فدخلها بدون أي جيش ولا أُبّهة من جانب ثالث. لم يكن دخوله مكة منفردًا أمرًا عاديا، إذ كان أهل مكة يدركون أن دخوله ﷺ مكة وحيدًا بدون جيشٍ أعظمُ وأروعُ من دخوله مع الجيش آلافَ المرات. ذلك لأنه ﷺ رغم كونه وحيدا كان يقول بلسان حاله لأهل مكة: ها إني أدخلها بدون جيش، ولكن حذار أن ينظر إليّ اليوم أحد نظرة سوء، لأن ملائكة الله يحفظونني عن يميني وعن شمالي، وقد جئتكم برسالة توبة، فإن شئتم فاقبلوها وانضموا إلى جنود الله تعالى، وإن شئتم فكونوا فريسة لسيوف هؤلاء الملائكة الذين يدخلون مكة عن يمينها وعن شمالها.

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾

التفسير: قال ابن عباس ﷺ: المراد من قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ كلٌّ ذي حياة. وقال مجاهد: المراد آدمُ وكل أولاده. وقال البعض: المراد منه جميع الصلحاء وأولادهم. وقال آخرون: المراد منه نوح عليه السلام وأولاده. وقال أبو عمران الحوفي: المراد منه إبراهيم عليه السلام وكل أولاده. وقال الطبري والماوردي: الوالد هو رسول الله، وما ولد هو أُمتُه، لأن رسول الله ﷺ قال: أنا لكم بمنـــزلة الوالد، وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾(الأحزاب:٧)؛ فما دامت أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين، فهو أبوهم. وقال صاحب البحر المحيط: لقد أقسم الله هنا برسوله وبأمته تشريفًا لهم (البحر المحيط).

لقد بينتُ مرارًا أن المراد من القَسم: الشهادة.. حيث يقدم الله تعالى تلك الأشياء في حالتها العامة أو في حالتها الخاصّة شهادةً على صحة بعض الأمور.. أي أنه تعالى يقدّم ما في أحوال تلك الأشياء من دروس شهادةً على صحة ما يقول، ومن الأمثلة على تقديم شهادة هذه الأشياء في حالتها الخصوصية أن الله تعالى قال هنا: ﴿أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.. أي نقسم بهذا البلد في حالته الخاصة أي حين تكون حلاً فيه. فالقول إن الله تعالى قد أقسم هنا تعظيما لأمة الرسول ﷺ قول عبث، إذ لا يقسم أحد بشيء تكريمًا له. هل يقول أحد لغيره: إني أقسم بك لأني أُكرمك؟ هذا ليس أسلوب العربية ولا أي لغة أخرى. الواقع أن المفسرين لم يدركوا حقيقة القَسم، ولذلك قالوا إن القسم هنا للتكريم. لا شك أن من ذُكر في القرآن سواءً مِن أجل الشهادة على شيء أو تخليدًا لحسناته، فقد حظي بالتكريم، ولكنه أمر ضمني، لأن القَسم ليس هدفه التكريم. نعم حين يُقسَم بشيء فقد تم تكريمه لو كان جيدا، ولكن ليس الغرض من القَسم التكريم، إنما التكريم نتيجة طبيعية.

وعندي أن المراد من قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. نعلم من القرآن الكريم أن للكعبة المشرفة ومكة المكرمة علاقة خاصة

بإبراهيم وابنه إسماعيل، وإذا ذُكر شيء من غير تحديد، فالأولى نسبته إلى ما هو مذكور في السياق. وحيث إن الموضوع قبل هذه الآية عن مكة، فيجب أن نبحث عن والد ومولود لهما علاقة خاصة بمكة. ويخبرنا القرآن الكريم نفسه أن إبراهيم عليه السلام وضع أساس الكعبة وأسكن إسماعيل عليه السلام في مكة داعيًا ربه أن يجعل هذا المكان بلدا عامرا وآمنا، وأن يجعل أفئدة الناس تهوي إليه، وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يوجد فيه أناس يذكرون الله وينذرون حياتهم في سبيله. هذا ما دعا به إبراهيم مع إسماعيل عليهما السلام. ثم إنه كان قد جاء بإسماعيل وهو طفل صغير إلى مكة، حين لم يكن بها شيء للأكل والشرب بل كان واديا غير ذي زرع، وقد تركه هنالك متوكلاً على الله تعالى وموقنًا بوعوده. وإننا لا نجد قبل بعثة النبي ﷺ والدًا له علاقة بمكة إلا إبراهيم عليه السلام، ولا نجد قبل بعثته ﷺ ولدًا يمكن أن يخطر بالبال إلا إسماعيل عليه السلام. هذا أمر واضح جلي بحيث لا يمكن أن ينكره حتى مَن ينكر القرآن. وما دام هذا الأمر واضحا كل هذا الوضوح فأي مشكلة في تحديد الوالد والولد المذكور في هذه الآية؟ عندما يُستخدم لفظ نكرةً بغير تحديد فإنما يراد به أحد معنيين: إما أنه يكون لفظا عاما يشمل كل فرد من جنسه، أو يكون معروفًا بحيث يعرفه الناس على الفور بحيث لا يحتاج إلى أي تحديد. فمثلا إذا قلنا كلمة (يوم)، فإما المراد منه كل يوم، أو المراد منه يوم ذو تأثير كبير في حياتنا بحيث يتبادر إلى ذهننا فورا، ولا يراد به أي معنى آخر. وهذا الأسلوب رائج في كل لغة فصيحة.

لذا فأرى أن تفسير قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ بالصلحاء وأولادهم، أو نوح وأولاده.. خلاف العقل.

أما القول إن المراد منه هو إبراهيم عليه السلام وأولاده، فهو قول معقول، غير أني أرى أن المراد من ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ هو إسماعيل عليه السلام فقط لا كل أولاد إبراهيم عليه السلام. ومن الحقائق التي لا يسع أحدا إنكارها أن إبراهيم عليه السلام هو مؤسس مكة ورافع أساس الكعبة. فإذا ذكرنا والدًا وولدًا في سياق مكة من دون أي تحديد، فلن يتبادر إلى ذهن أي عاقل إلا إبراهيم وإسماعيل اللذين أسسا الكعبة. فمثلا يقول الناس في بلدنا: يا مَدَنِيّ.. ومع أن هذه الكلمة في حد ذاتها لا تحدد شخصا واحدا من بين

ملايين الناس الذين عاشوا في المدينة المنورة، إلا أنه كلما استخدمها أحدنا تبادر إلى الذهن فورا أنه لا يعني بها كل من يقيم أو أقام في المدينة، بل يعني بها ذلك الإنسان المقدس الذي عاش في المدينة والتي عظُمت المدينة بسببه ﷺ. إن كلمة "مَدَنيّ" يستخدمها الناس في بلدنا يوميا ولا سيما الشعراء البنجابيين الذين كلما قرضوا شعرًا في مدح النبي ﷺ خاطبوه بها، ولا تنتاب أحد شبهة في ذلك، ولا يقول إنها كلمة نكرة وقد يراد بها كل من يقيم في المدينة، بل يعرف الجميع أنها رغم كونها نكرة تشير إلى ذلك الإنسان المعروف الذي لا يمكن أن يُنسَب أحد إلى المدينة أكثرَ منه. فكما أن كلمة "مَدَني" تعني الرسول ﷺ.. فكذلك كلما ذُكر مع مكة والد ومولود فيراد بهما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فقط لا غير.

والجدير بالتدبر هنا أن الله تعالى قد ذكر هنا الوالد والمولود معًا. فما الحكمة في ذلك؟ لماذا لم يذكر الله تعالى الوالد فقط، أو المولود فقط؟

ذلك أن هنالك والدا ومولودا أسسا الكعبة، ثم تسببا في هداية الناس. لم يقم بهذا العمل الوالدُ وحده ولا الولد وحده، بل اشتركا فيه معًا، ولذلك ذكرهما القرآن معًا و لم يذكر أحدهما فقط.

فأرى أن الواقعة التي تنطبق على هذه الآية بكل جزئياتها هي الأَوْلى بالأخذ عند التفسير، وعليه فستعني هذه الآية والتي قبلها: إننا نقدم هذه البلدة كشهادة وأنت حلٌّ بها، وكذلك نقدم كشهادةٍ إبراهيمَ وإسماعيل اللذيْن أسسا هذه المدينة.

أما جواب القَسم أو الأمرُ المشهود عليه فقد قال المفسرون أنه مذكور في قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البحر المحيط).

وعندي أنه رأيٌ سليم، وأن قوله تعالى بعدها ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب قطعي ويقيني لهذا القَسم. ولكن فيما يتعلق بالآيات كلها، فأرى أن هذا جواب ثانوي، لأن الجواب الحقيقي للقسم هنا هو نفس ما ذُكر في السور السابقة، والدليل على ذلك أن الله تعالى قد استخدم هنا قبل القَسم لفظ (لا)، وفي هذه الحالة لا بد من قرينة لتحديد المعنى. لا شك أن الله تعالى لم يذكر الأمر المنفي بعد كلمة (لا)، ولكن لا بد من قرينة في الكلام الفصيح لتحديد المنفي بـــ (لا).

والقرينة القريبة هنا هي الإشارة إلى ما سبق. فما أشير إليه في (لا) هو المشار إليه بالقَسم أيضا. وأرى أن هناك جوابا للقسم محذوفا هنا، وهو الجواب الأصلي. وقد ذُكر من قبل، ولذلك حذفه الله هنا. وعليه فالمعنى: أننا نحن نقدم هذه البلدة في حالة كونك حِلاًّ بها، ونقدم إبراهيم وإسماعيل كشهادة على أن ما ذُكر في الآيات السابقة لواقعٌ حتما.. أي أن محمدا ﷺ سيتعرض لمعارضة شديدة حتى يضطر للهجرة، ولكنه سينتصر في نهاية المطاف، إذ سيأتي به الله إلى هذه البلدة منتصرا. وكل هذا سيحدث حتما؛ وكذلك نقول أيضا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. وهكذا يُعتبر هذا القول الرباني جوابًا ثانيًا للقَسم يأتي تفصيله في وقته، ويقال إن الله قد قدم هنا دليلا عقليا إضافيا يؤيد الشهادة السابقة.

أما إذا اعتبرنا أن قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ هو نفسه جواب القَسم فلا بد لنا من القول أيضا إن حرف (لا) في قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهذا الْبَلَدِ﴾ جاء دحضًا لأفكار البعض التي أبطلها الله بقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.. حيث يظن بعض الناس أنهم سينالون الرقي بسهولة ويُسرٍ بدون أن يقدموا أية تضحية وبدون أن يحرِّكوا ساكنا، فلا يهتمون بإكرام الضيف وإطعام المسكين وغيرهما من الأمور. فيقول الله تعالى إنها فكرة باطلة أيها الناس، إذ ليس صحيحا أنكم ستنالون الرقي على مستوى الأمة بسهولة ويسر وبدون أن تحركوا ساكنا. كلا، بل الحق أن التقدم محال بالإعراض عن المسؤوليات سواء كانت أخلاقية أو دينية أو سياسية، إذ قد خلقنا الإنسانَ بحيث يحرز التقدم بالجهد والمشقة، ونقدّم مكَّة.. وأنت حِلٌّ بها.. وكذلك إبراهيمَ وإسماعيل دليلا على صحة هذا المبدأ.

لقد سبق أن فسّرتُ جزءًا من هذه الآيات وقلتُ إن لفظ (الحِلّ) له عدة معان في العربية، وبحسب هذه المعاني كلها تمثّل مكة دليلاً قطعيًا على أن محمدا رسول الله ﷺ قد بُعث لإصلاح أهل هذا الزمان. كذلك بينتُ لدى تفسير (ليال عشر) نوعيةَ الإيذاء الذي صبّه المشركون على المسلمين في مكة. كما بينت كيف يطلع الفجر من عند الله تعالى، وكيف تُكسَر شوكة الكافرين. وهذه الأحداث كلها

تشكّل جوابًا للقسم هنا، وكأن الله تعالى يقول: إن فظائع المكيين تقتضي أن يخرج الله محمدا ﷺ من مكة أولاً، ثم يعود به إليها منتصرا، ليؤكد أنه تعالى هو من قد بعثه لهداية الناس، وأنه ﷺ نبي حق وسينتصر حتما. والآن بعد ذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي نقدّم إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- أيضا كشهادة، وبيانها أن إبراهيم عندما رفع مع إسماعيل قواعد البيت بمكة دعا الله تعالى قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٣٠). لا شك أن شهادة الولد لم تُذكر هنا، ولكن ما دام الاثنان قد رفعا قواعد الكعبة معًا، فيُعتبر إسماعيل شريكًا مع إبراهيم في الدعاء، كما هو واضح من صيغة الجمع ﴿ربنا﴾. والدليل الآخر على أن إسماعيل كان شريكا في هذه الشهادة تلك الأدعية الطويلة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام لما بنى الكعبة ومعه إسماعيل عليهما السلام، والظاهر أنه قد دعا بها لإسماعيل وأولاده، إذ يقول ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم:٣٨). فأولاً: كان إسماعيل شريكا مع إبراهيم -عليهما السلام- في دعائه لبعثة نبي في مكة، لأنه قام بهذا الدعاء عندما بنى الكعبة مستعينًا بإسماعيل. وثانيا: كان إسماعيل شريكًا في تلك الأدعية من حيث إن إبراهيم قد دعا لتتحقّق هذه الوعود في نسل إسماعيل، ولذلك ذُكرت شهادة الوالد والولد معًا هنا، فقال الله تعالى إننا نقدم والدا ومولودا كشهادة على صدق محمد رسول الله. تعلمون أن إبراهيم دعا ربَّه لبعثة رسول في نسل إسماعيل، وإذا كانت تلك الأدعية لم تتحقق بعد في رأيكم، أفلا يدل ذلك على كذب إبراهيم؟ ثم انظروا إلى إسماعيل فإنه قدّم تضحية كبيرة، فقال إني مستعد للتضحية بحياتي في سبيل الله، فأقيم في واد غير ذي زرع حسب أمر الله تعالى. لقد استعدّ للموت المحقَّق والمريع في سبيل الله تعالى، وقد فعل ذلك لتتحقق وعود الله تعالى المتعلقة بهذا المكان المبارك عن طريق نسله. أفلا يكون عليه السلام كاذبا لو لم يولد هذا الشخص الذي كان غاية مكة وهدفها؟ لا شك أن التضحية الزائفة هي التي لا تأتي بنتيجة، أما التضحية

الصادقة فلا بد أن تأتي بثمارها، وإذا كانت تضحية إسماعيل صادقة -ولا يمكنكم إنكار ذلك- فلا بد لكم من الاعتراف أنه لا بد من أن يُبعَث إنسان كامل، كثمرة لهذه التضحيات. وإذا كنتم تنكرون ظهور إنسان كامل في نسل إسماعيل كثمرة دعاء إبراهيم فمعنى ذلك أن تضحيتهما لم تكن مقبولة عند الله في رأيكم! لو كانا قد قدما تضحيتهما بتقوى الله فكيف يمكن أن يضيّع الله تقواهما ولا يأتي بثمار تضحيتهما. باختصار، لا بد لكم من الاعتراف بأحد الأمرين؛ إما أن تعترفوا أن أدعية إبراهيم قد ضاعت سدى، وأن تضحية إسماعيل أيضا لم تأت بثمر، أو تقرّوا أن تضحيتهما كانت صادقة وأن الثمر الذي تقتضيه قد ظهر فعلا في الدنيا، وهو محمد ﷺ، لأنه الوحيد الذي ادعى بهذا المنصب بعد انقضاء هذه الفترة الطويلة كلها. فإذا قبلتم الأمر الأول فلا بد لكم من تكذيب إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- وإذا قبلتم الأمر الثاني فلكم أن تعلنوا صدقهما. ولكنكم تصدّقونهما ومع ذلك تكذبون محمدا رسول الله الذي هو ثمرة دعاء إبراهيم، وثمرة تضحية إسماعيل. إذا كنتم تكذبونه ﷺ فلا بد لكم من تكذيب إبراهيم وإسماعيل، وإذا كنتم تصدّقونهما فلا بد لكم من تصديق محمد ﷺ، لأن الأمرين متلازمان. إذا ثبت صدق محمد ﷺ ثبت صدق إبراهيم عليه السلام، وإذا لم يثبت صدق محمد لم يثبت صدق إبراهيم ولا إسماعيل. عندما قدم إسماعيل عليه السلام نفسه للتضحية وعده الله تعالى أن يرزقه أولادا روحانيين يُحيون العالم كله، وأن يهب أسرته كلها حياة أبدية نظير الإقدام على هذا الموت الواحد. فإذا لم يقدم إسماعيل نفسه بصدق نية من خلال القربان الظاهري أولاً، ومن خلال الإقامة في واد غير ذي زرعٍ (مكةَ) ثانيا، فلا يمكن أن يولد في نسله ذلك الولد الخاصّ. أما إذا كان صادقا في تضحيته فلا بد أن يكون في نسله مَن يهبون الحياة الروحانية للعالم. فالحق أن صدق إبراهيم وإسماعيل متوقف على صدق محمد رسول الله ﷺ، وهذه هي الحقيقة التي ذكرها الله تعالى أمام كفار مكة بقوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أنكم تصدّقون إسماعيل وإبراهيم، والغريب أنكم تكذّبون ذلك الشخص الذي يتوقف عليه صدقهما. تعترفون أن إبراهيم دعا لبعثة رسول، وعندما بُعث ذلك الرسول نتيجة دعائه كذّبتموه..

وتقرّون أن إسماعيل حين قدّم التضحية قطع الله مع إبراهيم وعودا في حق أولاد إسماعيل وقال إنه تعالى سيُخرج من نسله إنسانًا يزكّي العالم كله، فلما ظهر هذا الابن الروحاني كفرتم به. لقد كفرتم بمحمد ﷺ في الظاهر، ولكنكم في الواقع قد كفرتم بإبراهيم وإسماعيل، لأنه ﷺ هو الموعود الذي يشهد على صدقه النبيّانِ. إن إبراهيم يشهد أن محمدا ﷺ صادق، وإن إسماعيل أيضًا يشهد أن محمدا ﷺ صادق، ولكنكم تسلكون مسلكًا معارضًا تماما للغاية التي دعا لها إبراهيم وقدّم من أجلها إسماعيلُ تضحيته.

قد يقول قائل هنا: إن معارضة أهل مكة لمحمد ﷺ لم تكن تهدف إلى عدم تحقُّق ما أراده إبراهيم وإسماعيل، وإنما عارضوه ﷺ لأنهم كانوا على يقين أن دعاء إبراهيم سبق أن تحقق من خلالهم أنفسهم.. ولم يدَعوا تضحية إسماعيل بلا ثمر، إذ يعبدون اللات ومناة والعزى، وهذا ما كان إبراهيم وإسماعيل يدعوان إليه!! إذا كانوا يعارضون محمدا ﷺ، فذلك لأنهم رأوا أن كل ما دعا إبراهيم من أجله قد تحقق من خلالهم، فلا حاجة الآن أن يأتي أحد ويقول إنه نتيجة دعاء إبراهيم وثمرة تضحية إسماعيل. إن أدعية إبراهيم قد تحققت من قبل في أنفسهم وإن غاية تضحية إسماعيل أيضا قد تحققت من خلالهم. لقد حققوا الغاية التي كان يصبو إليها إبراهيم وإسماعيل، وهم يؤمنون بعقائدهم ذاتها، فإذا كان محمد يستاء منها، ويستاء من عبادتهم للات ومناة والعزى فهذا شأنه. ما دام هذا هو تعليم إبراهيم وإسماعيل كليهما وهذا هو هدف بعثتهما فلا يضرهم شيئا إذا اتهمهم محمد أنهم اعتبروا دعاء إبراهيم عبثًا أو أغمضوا النظر عن هدف تضحية إسماعيل.

ولهذا الاعتراض جوابان: أولا: لا شك أن أهل مكة كانوا يعبدون اللات ومناة والعزى وغيرها، ولكن لم يوجد بينهم فرد واحد يدّعي أن إبراهيم أو إسماعيل أيضًا كان يعبد الأصنام. وهذا دليل رائع هيّأه الله على صدق الرسول ﷺ. لم يجرؤ أي من أهل مكة أن يزعم أن إبراهيم أو إسماعيل قد تورط في الشرك. وحيث إنهم لم يكونوا ينسبون الشرك إليهما حسب عقيدتهم، فما كان بوسعهم أن يدّعوا أنهم قائمون بالتعاليم التي تحقِّق هدف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وثانيا: لا شك أن أمر الدين مطروح للنقاش دائما، وتكون بهذا الصدد اختلافات كثيرة. وبغض النظر عن الاختلافات الدينية الكثيرة بينهم وبين الرسول ﷺ، فلا يمكن لأحد إنكار حقيقة أن أهل مكة كانوا يؤمنون أن الدعاء الذي دعاه إبراهيم عند تأسيس الكعبة كان لا بد أن يتحقق، ولكن ما كان بوسعهم – نظرًا إلى حالة مكة عندها– الادعاء أن مكة مصداقٌ لدعاء إبراهيم؛ ذلك لأنه كان قد دعا الله تعالى أن يجعلها مثابة للعالم كله. كان بوسعهم أن يدعوا أنهم على الحق، أو أنهم إذا كانوا يشركون باللات ومناة والعزى فلا بأس في ذلك، لكن هل كان بوسعهم أن يدّعوا أن الجزيرة العربية صارت مركزًا للعالم كله تحقيقًا لدعاء إبراهيم؟ كانوا يرون بأم أعينهم أن هذا الأمر لم يتحقق بعد، وأن مكة لم تحظَ بعد بذلك التكريم الذي دعا إبراهيم من أجله عند بناء الكعبة. كان أهل مكة بسطاء جدًا من الناحية المادية، ولم تكن مكانتهم بين العرب مرموقة جدا، ناهيك أن يحظوا بإكرام خاص في العالم الخارجي! كلا، ما كان بوسعهم أن يدّعوا أنهم يتمتعون بنفوذ وهيبة على باقي العرب، دعك من القول أنهم كانوا بالفعل مصداقا لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. فكانوا مضطرين للاعتراف أن مكة ستكتسب المزيد من العظمة والشأن من الناحية الروحانية، إذ لا يزال هناك شوط كبير حتى تصبح مكة مركزا للعالم، ويفد الناس إليها من أطراف الدنيا كلها. يا ترى متى كانت مكة تتمتع بالعظمة الحالية قبل الإسلام؟ لا شك أن العرب كانوا يأتون إلى مكة للحج، ولكن لم يكن أهل كل بلد وقطر من العالم يقصدونها للحج. يمكن أن تسمّى مكة عندها مركزا لبلد واحد، ولكنها لم تكن مركزا للعالم أجمع، بينما كان إبراهيم عليه السلام قد دعا الله تعالى أن يجعلها مركزا للعالم كله، وأن يجذب الناس إليها من كل أنحاء المعمورة. فشتان بين حالة مكة عندها وبين ما دعا به إبراهيم من أجلها. كان واضحًا أنها لم تَحُزْ بعد على مكانتها اللائقة، وأن دعاء إبراهيم عليه السلام لم يتحقق بعد، وأن تضحية إسماعيل عليه السلام لم تثمر بعد، وأن مكة لم تتمتع بعد بتلك المكانة المرموقة التي ستتمتع بها عندما تصبح مركزا للعالم كله.

فثبت أنه ما كان بوسع أهل مكة أن يدّعوا أن دعاء إبراهيم عليه السلام قد تحقق. كانوا يعرفون أنها لا تتمتع مِن قِبل العالم الخارجي بمكانتها اللائقة، وإنْ كان العرب يأتونها للحج.

وهناك شواهد تاريخية تدل على مدى احتقار الشعوب الأخرى للعرب. فلما كتب النبي ﷺ رسالته إلى قيصر يدعوه فيها إلى الإسلام، تأثّرَ منها كثيرا وقال لحاشيته: يبدو أن صاحب هذه الرسالة إنسان شجاع جدا، يجب أن نعلم من الناس أحواله: هويّته ودعواه ومصيره بعد الدعوة؛ فابحثوا عن أي أناس من مكة وأْتوني بهم لأسألهم عنه. ولأن الله تعالى كان يريد إقامة الحجة على أهل مكة فقد وُجد أبو سفيان بالصدفة هنالك مع قافلته التجارية، فأتوا به إلى قيصر. ومع أن أبا سفيان كان قائد أهل مكة وسيدهم، إلا أنه لم يُعرَض على قيصر بصفةِ ملِكٍ، ولا حاكم ولاية ولا قائد عسكري لحكومة أخرى، بل عُرض عليه كأنه مجرم، إذ قال قيصر لأصحاب أبي سفيان: سأسأل صاحبكم أسئلة، فإن صدَق فيها فاصمتوا، وإنْ كذب فكذِّبوه فورا. (البخاري: كتاب بدء الوحي)

كم كان كبيرًا هذا الخزي الذي تعرض له أبو سفيان في بلاط قيصر! كان ملِكًا على مكة، وزعيمًا لقومه، وكان يقابل النبيَّ ﷺ كسيد قومه، ولكنه لما عُرض على قيصر لم يعامله كملِكِ دولةٍ ولا حاكم ولايةٍ ولا كقائد عسكري للشعب العربي؛ ذلك لأن قيصر لم يكن يعتبر بلاد العرب دولةً ولا ولاية إزاء إمبراطوريته، ولا العربَ شعبًا ذا نظام ولا أبا سفيان قائدهم؛ فلم يستقبله استقبال الملوك، بل لم يقدم له كرسيا للجلوس، بل لم يسمح له بالجلوس على الأرض، وإنما أمره أن يقف أمامه معتبرا إياه تاجرا عاديا.

هذا كان قرار قيصر بشأن أبي سفيان وبشأن البلدة التي كان يمثّلها. أما أبو سفيان فكان قراره أكثرَ غرابة؛ فعندما تلقى معاملة المجرم في بلاط قيصر لم يحتجّ على ذلك بكلمة واحدة. لو كان يعتبر مكة دولة ويعتبر نفسه رئيسها حقًّا، فلا بد أن يحتج ويقول لقيصر: أنا رئيس دولة، فيجب أن أُعطى مكانة مماثلة لك، ولكنه رضي بهذا الضيم بصمت.

ثم إننا نرى أنه لما عُرضت رسالة النبي ﷺ على قيصر قال لحاشيته: إن محمدا يدعوني للإيمان به، فما رأيكم؟ فارتعب أبو سفيان برؤية ذلك المشهد وقال كيف يبعث محمد رسالة إلى قيصر، ثم قال لأصحابه: لقد أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشةَ! (البخاري: بدء الوحي).. أي لقد استفحلَ أمر محمد ﷺ، حيث يراسل قيصرَ، فيهتمّ هو أيضا برسالته. كان أبو سفيان مَلِكَ قومه في الظاهر، ومع ذلك تأخذه الحيرة من أن محمدا ﷺ يبعث رسالة إلى قيصر. فلو كان أبو سفيان ملِكًا حقيقيا لم يتعجب من ذلك.

ولو قيل إنه لم يتعجب من أن يراسل محمد ﷺ قيصرَ، بل تعجبَ من تأثر قيصر برسالته ﷺ، فهذا يدل أيضًا على حقارة شأن المكيين عند أنفسهم. لو كان عجب أبي سفيان من مراسلة الرسول ﷺ لقيصر فهذا يدل على حقارة شأنه أيضا، وإذا كان يفكر أننا أمة بسيطة ولا عزة لنا بين شعوب العالم، وقد ولد بيننا الآن محمد الذي يرتعب منه قيصر، فهذا دليل على اعتراف أهل مكة بأن دعاء إبراهيم عليه السلام لم يتحقق بعد. لو كان دعاؤه عليه السلام قد تحقق، ولو كان العرب يرون أن مكة قد تبوّءت مكانة غير عادية في العالم، فما هو دليلهم على ذلك؟ فهل دليلهم أن مَلِكَهم أبا سفيان حضر في بلاد قيصر فعامله بهذا الاحتقار؟ أم هل كان بيد رؤساء مكة الآخرين مثل عتبة وشيبة أي دليل على عظمتهم وسلطتهم القومية؟

أما احتقار الشعوب الأخرى للعرب فهو واضح مما قاله كسرى الفُرس للمسلمين، حيث عرض عليهم حين زحفوا إلى مُلكه أن يأخذ كلٌّ منهم درهمًا ويرجع؛ فترى أنه كان يعتبر العرب شعبًا حقيرًا بحيث ظن أن قيمة المقاتل العربي الواحد درهم واحد. هذا كان رأي مِلك الفُرس في العرب بناء على ما رأى من أخلاق أهل مكة. أما رأيُ قيصر في العرب فهو -كما قلتُ- واضحٌ من واقعة أبي سفيان في بلاطه؛ فإنه لما عُرض عليه لم يعتبره أكثرَ من تاجر عادي لن يتورع عن الكذب عند الحاجة. بل الحق أن مكانة أبي سفيان لم تكن كمكانة المولوي محمد حسين البطالوي أيضًا، فإنه لما حضر محكمة القاضي (دوغلاس) قال له: يجب أن

أُعطَى كرسيًّا، أما أبو سفيان فلم ينبس ببنت شفة أمام قيصر، و لم يطالبه بكرسي، لعلمه أنه لو طالب به لضُرب بالنعال وأُخرج من البلاط.

فيا ترى هل كان بإمكان العرب أن يقدّموا هذه الأحداث دليلا على تحقُّق دعاء إبراهيم وإسماعيل من خلالهم؟ كلا، بل كانوا يدركون أن هذا الدعاء لم يتحقق بعد، وأن مكة لم تنل ذلك التعظيم المذكور في دعاء إبراهيم عليه السلام، ولذلك يقول الله تعالى لأهل مكة إننا نقدم أمامكم إبراهيم وإسماعيل كشهادة، إذ تعترفون أن هناك دعاء في حق مكة، فأين ذهب هذا الدعاء؟ لقد قام بينكم شخص مدعيًا أنه بُعث مصداقًا لهذا الدعاء، فترمونه بالكذب! إذا كان كذابًا فمنذا الذي يأتي تحقيقًا لذلك الدعاء؟ ومنذا الذي يكون مصداقًا لوالدٍ وما ولد؟ من المحال أن تقدّموا أي مدع آخر ظهر كثمرة لتلك الأدعية. إذن فأدعية إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام– دليل عظيم أن محمدا رسولٌ صادق من عند الله تعالى.

ويمكن أن يفسَّر قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ بمفهوم آخر أيضًا، وهو أننا نقدم حادث إبراهيم وابنه من الماضي كشهادة على ما نقول، فعليكم أن تتدبروه وتروا كيف طُرح هذا الولد بأمر الله تعالى بعيدًا عن وطنه في واد غير ذي زرع، فحفظه الله تعالى، فشبّ وترعرع وصار أبًا لنسل عظيم. كذلك لو أن أقارب محمد ﷺ طردوه من مكة، فإن الله تعالى سينصره كما نصر إسماعيل من قبل.

يعلم الذين يطالعون التوراة أنه قد ورد فيها أن هاجر كانت أم إسماعيل عليه السلام، فحصل بينها وبين سارة خصام، فطالبت سارة إبراهيمَ عليه السلام بطرد هاجر وابنها إسماعيل من البيت، فوجد أن الإشارات الربانية أيضًا تتفق مع ما يطالَب به؛ فأخذ إسماعيل وأمه من البيت، وتركهما في وادي مكة التي لا أثر فيها للمأكل أو المشرب أو المسكن أو السكّان. كانت برية جرداء ليس بها قطرة ماء ولا حبة غذاء. ولكنه عليه السلام ترك هذين الضعيفين في العراء تحت السماء متوكلا على الله وطاعة لأمره سبحانه وتعالى. فتُقبلت في السماء تضحيته هذه التي قدمها لوجه الله تعالى. فصار ذلك الوادي القفر بفضله تعالى مدينة عامرة بمرور الأيام. ثم كتب الله لهذا

المكان من العزّ بأن صار مرجع الخلائق، فبُني هناك بيت الله. وقد نال هذا البيت من الشرف عن طريق إبراهيم عليه السلام بأن جُعل مركزا للسلام والأمن في العالم.

والله تعالى يعرض على الكفار هذه الواقعة ويقول: ستُخرجون محمدًا من بلدتكم هذه في يوم من الأيام، كما أُخرجت هاجر وإسماعيل من بيتهما، ولكنا نُقسم بإبراهيم وابنه إسماعيل أننا سنجعل القرية التي سيهاجر إليها محمد ﷺ بلدةً وسنكتب لها عزة حتى نجعلها بلدًا حراما كما حوّلنا مكة من برية جرداء إلى بلدة عامرة عظيمة حتى جعلناها البلد الحرام. إننا نحلف بذلك الوالد الذي أخرجَ ولدَه من البيت بمطالبة زوجته، وهو ولد ضعيف لا يملك حيلة ولا يهتدي سبيلا، وليس له أنيس هنالك ولا معين، ولكن الله تعالى قد كتب له قوة عظيمة، فنُقسم بذلك المولود أنكم ستُخرجون محمدا من بلدتكم حتمًا، ولكن اعلموا أن مكة لن تعود بعدها البلدة المنفردة بالإعزاز، بل سوف نجعل إزاءها بلدة عظيمة أخرى.

وبالفعل ترى أن النبي ﷺ أُخرج من مكة، ولكن الله تعالى قد كتب للمدينة المنورة من العز بحيث جمع النبي ﷺ الناس يوما وقال: أيها الناس، إن إبراهيم كما أكرمَ مكة بإعزاز خاص، فإني أمنح المدينة أيضا تكريما خاصا، فيجب أن تُحرّم فيها النفس كما هي محرمة في مكة، ويجب ألا يُقطع شجرها، كما لا يقطع في مكة، وألا يتم فيها قتل ولا فساد وسفك دماء كما هو محرم في مكة. إذن، فإن النبي ﷺ قد خلع على المدينة المواصفات التي كانت تتميز بها مكة.

ثم يجب أن نفكر منذا الذي سمح للنبي ﷺ بتحريم المدينة؟ يعترض البعض أن هذا التحريم بيد الله تعالى وليس بيد محمد ﷺ، فما كان له أن يفعل ذلك. ولكن هؤلاء الجهلة لا يعرفون أن محمدا ﷺ قد أُعطيَ من المعرفة العميقة للقرآن ما لم يُعطَ غيرُه من البشر. الواقع أن أساس تحريمه للمدينة هو قول الله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أُقسم بهذا البلد وبالوالد الذي أسسها وبالولد الذي جاء وسكن فيها، أنكم ستُخرِجون محمدًا منها حتما، ولكن

اعلموا أن المدينة التي سيهاجر إليها ستُجعل مثيلةً لمكة، وتحظى من العزة والحرمة بحيث لن تعود مكة منفردة بذلك التكريم.

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هو أنه إشارة إلى الرسول ﷺ وأمته، حيث بين الله تعالى أن هذا الرسول وجماعته يشكّلون شهادة على أن الله تعالى سوف يكتب الازدهار للإسلام. وكأنه تعالى يقول للكافرين: كما أن خروج الرسول من هذا البلد الحرام ثم عودته إليه في شوكة وجلال سيكون شهادةً على أن ما قلنا لكم حقّ تماما، كذلك يمثّل هذا الرسول وأمته في حد ذاتهم دليلا على أنه لن يستطيع أحد القضاء عليهم.

علمًا أن هناك نوعين من الشهادة في الدنيا: الداخلية والخارجية، ثم إن الخارجية نوعان: المادية والروحانية. ومثال الشهادة الخارجية المادية أنه إذا كان عند إنسان آلافٌ من الجنود بعُدَّتهم وعتادهم وجماعةٌ مطيعة كل الطاعة، فالجميع يدرك أنه سينتصر حتما، إذ تتوافر عنده أسباب الانتصار كلها. أما الشهادة الخارجية الروحانية فمثالها أن يقيم الله تعالى عبدًا من عباده، فيدلي هذا العبد بأنباء انتصاره بناءً على وحي الله تعالى، فيدرك المؤمنون أن هذا الشخص غالب حتما، لأن الوعود الإلهية معه. أما الشهادة الداخلية فهي ما يسمى بالإنجليزية (INTRINSIC VALUE)، ويماثله المثل العربي الشهير: "الديك الفصيح من البيضة يصيح".. أي أن القوم يكونون ضعفاء عديمي الحيلة في بادئ الأمر، ولكنهم يتحلون بكفاءات وخصال وأخلاق بحيث يعترف الناس أنه لن يقف في وجههم أحد. وهنا أيضًا قد تحدث الله تعالى عن النبوءات المتعلقة برقي الإسلام أولا، فقال للكفار: مهما قلتم فإننا ننبئكم بهذه الأمور التي ستتحقق حتمًا، أو أن إبراهيم سبق أن تنبأ بها وسوف تتحقق يقينًا. ثم قال لهم إننا لا نكتفي بتقديم هذه النبوءات التي ستؤكد صدق محمد بتحققها خلال الليالي العشر وبعد انقضائها أيضا، بل نقدم أمامكم شهادة داخلية أيضا على صدقه ﷺ وسداده وغلبته في نهاية المطاف، وهي أنكم ترون صفات وأخلاق محمد وأتباعه.. ألا تجدون أنها صفات المنتصرين لا المغلوبين؟ فكأن قول الله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ إشارة إلى أخلاق النبي ﷺ وجماعته حيث قدمها

دليلا على صدقه ودعا الكافرين إلى المقارنة بين الفريقين من حيث الأخلاق، فقال تعالى إنكم المصداق لقولنا ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:١٨-٢١)، والواضح أن أصحاب مثل هذه الأخلاق والأعمال لا ينتصرون أبدا. ثم أخبرهم الله تعالى بقوله ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أن أخلاق محمد وجماعته ليست أخلاق المغلوبين بل هي أخلاق المنتصرين. إنكم لا تكرمون اليتيم ولا تطعمون المسكين وتتلفون الأموال وتهلكون العقار وتحبون المال إلى حدّ الجشع فتبخلون ولا تنفقونها عند الضرورة الحقيقية.. أي أن بعضكم مائلون إلى البذخ والإسراف فيهلكون ثروات الآباء وعقاراتهم، وبعضكم بخلاء يكنـــزون أموالهم، أي أن بعضكم يهدر الأموال في غير محلها، وبعضكم لا ينفقها في محلها إنفاقا هادفا؛ وأنّى للأمة المصابة بهذه العيوب أن تنتصر؟! وعلى النقيض انظروا إلى هذا الأب الروحاني ﷺ وأولاده فهم على النقيض منكم تمامًا. علمًا أن الله تعالى لم يقارن بين الفريقيْن صفة صفة، بل ذكر من محاسن المؤمنين ما يعاكس هذه العيوب الأربعة للكافرين. لقد وصمهم الله تعالى بعدم الاهتمام برعاية اليتامى وإطعام المساكين، وأنهم يسرفون أو يبخلون فلا ينفقون عند الحاجة الحقيقية، فذكر إزاء عيوبهم الأربعة ما يتحلى به هذا الأب وأولاده من محاسن وأخلاق، فقال إنهم يكرمون اليتيم ويطعمون المسكين ولا يسرفون ولا يترددون عند الحاجة عن الإنفاق في سبيل الله تعالى.

لما نـــزل أول وحي على النبي ﷺ خاف أن يكون هذا اختبارا وابتلاء، فرجع إلى زوجته خديجة -رضي الله عنها- وحكى لها القصة، وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت بكل ثقة ودونما تردد: "كَلا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". (البخاري، كتاب بدء الوحي). فقولها -رضي الله عنها- يتضمن كل الأخلاق الحميدة التي كان الكافرون يفتقرون إليها، فقالت أولاً: تقري الضيف.. أي تكرم الضيف، وقد تضمن ذلك أن النبي ﷺ لا يحب المال ولا يكنـــزه، بل

ينفقه في كل حاجة ضرورية حقيقية. ثم قالت: وتحمل الكلَّ.. أي تحمل أعباء الناس، وقد تضمن ذلك رعاية الفقراء والمساكين، لأن مَن لا يصلح لشيء يصبح كلاًّ على الآخرين بدلاً من أن ينهض بأعبائهم. ثم الواضح أن اليتيم لا يصلح لشيء لصغر سنه والمسكين لا يصلح لشيء لافتقاره للمال، فقولها "تحمل الكلّ" تضمّنَ إكرام اليتيم وإطعام المسكين علاوة على المعاني الأخرى. وما دام النبي ﷺ ينفق على سد حاجات الآخرين، فلا يمكن أن يكون بخيلا، وهكذا تمّ نفي البخل عنه أيضا. أما قولها: "وتكسب المعدوم" فمعناه أنك تتحلى بالأخلاق التي صارت معدومة بين القوم، وهذا تأكيد على أنه ﷺ لم يكن مسرفا. فشهادة خديجة – رضي الله عنها – دليل قطعي على أن النبي ﷺ كان متحليا بالصفات والكفاءات التي لا بد منها لمن يريد التقدم والانتصار.

ثم ذكر الله الولد بعد الوالد، وعندما ننظر إلى أخلاق هؤلاء الأولاد، فنصاب بالذهول. فبعد الإيمان بالرسول ﷺ قد أكد هؤلاء بعَملهم أنهم يتحلّوْن في أروع شكل بخُلق رعاية اليتامى وإطعام المساكين والإنفاق على الحاجات الدينية والتخلي عن الوطن تماما، ومن الدليل الخالد على ذلك أنهم ضحّوا بأوطانهم وقاطعوا أقاربهم وخاضوا غمار الموت بكل أنواعه فرحين مسرورين.

باختصار، قد قدم الله تعالى هنا شهادة الوالد وولده كليهما، وتحدى الكافرين قائلا: كيف تظنون أن أصحاب هذه الأخلاق والكفاءات لن ينتصروا؟ بالنسبة إلى النبوءات بوسعكم أن تقولوا إنها تتعلق بالمستقبل وسنرى عندما تتحقق، ولكن كيف تنكرون هذا الدليل الماثل أمام أعينكم؟ إذ تعرفون أخلاق المسلمين وأخلاقكم جيدًا، ولا يسعكم إنكار أن أخلاقكم تؤكد أنكم المهزومون وأن أخلاق محمد وجماعته تؤكد أنهم المنتصرون.

وهناك احتمال –وإن كان ضعيفا– أن يراد بقوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ آدم وأولاده جميعا.. أعني كل الآباء وكل الأولاد، وعليه ستعني هذه الآية أيها الكافرون نقدم أمامكم كل البشر كشهادة على صدق محمد ﷺ. ترون بعض الناس يعزّون وبعضهم يذلّون، وتعرفون أن محمدا ﷺ وأصحابه يتحلون بكل المحاسن التي

توجد في الذين يعزّون، وأنكم موصومون بكل العيوب التي توجد في الذين يذلّون، فليس صعبًا عليكم أن تعلموا أي الفريقيْن سينال العز والانتصار، وأيهما يلقى الخزي والهوان. وكأن الله تعالى يقول للكافرين فكّروا في أحوال الناس جميعًا، وادرسوا أسباب رقيهم وزوالهم، وستعرفون أن بعض العيوب تتسرب إلى الآباء وبعضها إلى الأولاد، ولكن هذا الأب الروحاني ﷺ وأولاده بريئون من هذين العيبين؛ فلا توجد في محمد ﷺ العيوب التي توجد في الآباء والتي تدمر أولادهم، كما أن صحابته ﷺ مبرءون من عيوب الأولاد التي تشوه سمعة الآباء.

إذا قمنا بمطالعة أحوال رقي الأمم وزوالها وجدنا أربعة أسباب وراء ذلك، فإما أن يكون الأب ذا كفاءة، وابنه غير كفء، أو أن الأب غير كفء، والابن ذو كفاءة، أو أن كليهما يفتقر إلى الكفاءة، أو أن كليهما ذوا كفاءة. لو كان الابن ذا كفاءة والأب بدونها، فإن الابن يتأثر من أبيه أحيانا، ويهلك بسبب عيوب أبيه، وأحيانا لا يتأثر بعيوب أبيه ويكون أفضل منه. أما في حالة كفاءة الأب وعدم كفاءة الابن، فيفشل الأب حينا ولكنه يصلح ابنه بالتربية الجيدة. وفي حالة كون الأب والابن كليهما من عديمي الكفاءة، فلا ينفتح أمامهما سبيل للرقي. وأما في حالة كون الأب والابن من ذوي الكفاءة فمن المحال أن يمنعهما مانع من الترقي والازدهار. ولذلك قال الله تعالى هنا: انظروا أيها الكافرون إلى أحوال محمد ﷺ وأصحابه، فإن هذا الأب يتحلى بكل المحاسن والكفاءات، وأولاده مطيعون له كل الطاعة، فكلما تلقّوا أمرًا منه هبّوا لتنفيذه، وتكبّدوا المشاقّ واجتازوا الشدائد، ولم يرضوا أن تخرج كلمة من فم محمد ﷺ فيظلوا محرومين من سماعها والعمل بها. وإن قصة أبي هريرة رضي الله عنه أروعُ مثال على ذلك. كان إسلامه متأخرًا، إذ أسلم في السنة العشرين من البعثة، وتوفي رسول الله ﷺ بعد ٣ سنوات من إسلامه. ولما كان أبو هريرة يعلم أنه أسلم متأخرا جدا، فقرر في نفسه عند البيعة أن يظل ملازمًا باب الرسول ﷺ على الدوام، لأن الآخرين قد ملأوا جرابهم وهو لا يزال خالي الوفاض، ولو أضاع الأيام الباقية فلن يجد شيئًا. فعكف على باب رسول الله ﷺ بحيث كان لا يحتمل مفارقته ﷺ في أي وقت حتى لا يفوته من كلامه ﷺ شيء، إلا أن يدخل

ﷺ إلى بيته حيث كان الحجاب. ونتيجة عكوفه على باب النبي ﷺ كل الوقت، كان في بعض الأحيان يصاب بالفاقة والجوع لعدة أيام حتى كان يسقط على الأرض مغشيًا عليه من شدة الضعف، حتى يظن الناس أن قد أصابته نوبة من الصرع، فكانوا يضربونه بالنعال علاجًا له بحسب اعتقاد العرب عندها. وحين هزم المسلمون جيوشَ كسرى، وجيء بالغنائم، وُجد بينها منديل خاص كان كسرى يأخذه في يده عند جلوسه على العرش. فلما وُزّعت الغنائم أُعطيَ أبو هريرة هذا المنديل. وذات مرة كان يحمل هذا المنديل، وأصابته نوبة من السعال، وخرج البلغم مع السعال، فبصق في هذا المنديل، وقال: بخ بخ أبا هريرة! وكان يعني ما أعظمَ شأنَك أبا هريرة، حيث تبصق في منديل كسرى! فسئل: ماذا تعني من قولك بخ بخ؟ فقصّ قصة إسلامه والتزامه صحبة النبي ﷺ وجوعه وفاقته وضرب الناس إياه بالنعال عند إغمائه من شدة الضعف، أما اليوم فهو يحمل في يده منديل كسرى ويبصق فيه!

تفكروا في هذا الحادث، وانظروا كيف أعطى الله النبيَّ ﷺ أولادًا ذوي تربية عالية وأخلاق سامية وذكاء وتضحية وحبّ للتعلم!

إذن، فالله تعالى يقول للكافرين إن كل مبادئ النجاح وكفاءاته متوفرة في هذا الوالد وأولاده؛ فكيف تشكوّن في هزيمتكم وانتصاره؟

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤

شرح الكلمات:

كَبَدٍ: الكَبَدُ: الشدّةُ والمشقّة؛ وَسَطُ الرمل؛ وَسَطُ السماء. وكَبِد الرجلُ كَبَدًا: أَلِمَ مِن وجعِ كبدِه.

التفسير: لقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ مفهومان: أولهما لقد خلقنا الإنسان بحيث لا بد له من الجدّ والاجتهاد على الدوام، وثانيهما: لقد جعلناه وسط السماء.

ونظرا إلى المفهوم الأول فستعني الآية أنا خلقنا الإنسان بحيث لا مهرب له من الجد والكدّ، بل هو مُجبَر عليه. إن نواميس الكون، أو ما أعطينا الإنسان من قوى وكفاءات، تكشف حتمًا أنه خُلق لتحمل المشاق والشدائد. وعندي أن هذا جواب ثانٍ للقَسم المذكور سابقا، حيث يخبر الله تعالى أن صدق محمد ﷺ وسداده ليس ثابتًا من الدليل الذي ذكرناه من قبل فحسب، بل إن من أدلة صدقه أننا خَلَقْنَا الإنسان بحيث لا بد من تحمُّل المشاق وبذل الجهد؛ فإما أن يكون كلُّه لله تعالى أو للدنيا، وليس هناك خيار ثالث. لا يمكنه أن ينجح حال كونه معلقًا بين هذا وذلك، إنما يُنال النجاح والعزّ بطريقين: إما أن يصبح الإنسان كله للدنيا وينسى الله تعالى كلية، ويجتهد في الدنيا ويكدّ ويتعلم ويضحي لينال العز الدنيوي، أو يصبح كله لله تعالى ويمحو حبّ الدنيا من قلبه ويجتهد في سبيل الدين بجد ونشاط، إذ ليس وسطهما سبيل لنجاحه.

والواقع أن من المحال أن ينال الإنسان العزّ بدون جدّ في الدنيا وجدّ في الدين. كان المسيح الموعود عليه السلام يذكر أن الله تعالى قد جعل العزَّ في عصرنا هذا منوطا بنا بالطريقين كليهما: السلبي والإيجابي، فلن ينال العزَّ الآن إلا أتباعنا أو معارضونا. انظر مثلاً إلى المولوي ثناء الله الأمرتسري، فإنه ليس بشيخ كبير، بل يوجد الآلاف من أمثاله في البنجاب والهند، ولكنه نال العزّ والشهرة بسبب معارضته لجماعتنا. فسواء أقرّ معارضونا بذلك أم لا، إلا أن الواقع أن العز إما في معارضتنا أو في تأييدنا. وكأننا اليوم مركز الحدث حقيقة، فلن ينال المعارضون العزّ إلا بسببنا.

إذن، يقول الله تعالى هنا إن الأشياء التي قدمناها أمامكم كشهادة هي دليل بيِّن على أننا خلقنا الإنسان بحيث لا بد له من تحمُّل الشدائد والمشاقّ في سبيل النجاح. فإن مكة التي تعيش فيها والتي ستُعتبر حِلاًّ فيها والتي ستُتخذ هدفًا لكل سهم فيها، والتي ستتعرض لكل نوع من العذاب فيها، والتي لن تساوي شيئا عند أهلها.. نقول إن هذه البلدة نفسها دليل على صدق دعوانا، لأن الذين يريدون قتلك وتدميرك سيخيَّبون في مكائدهم مهما كثرت واشتدت، فيعترفون في النهاية أن مكائدهم وإنجازاتهم لم تُجْدِهم شيئا؛ وفشلُهم هذا سيكون دليلا أننا جعلنا الإنسان

بحيث لا مناص له من الجد والاجتهاد للنجاح. إن معارضتهم سطحية ومكائدهم عبثية؛ إذ لا يقدمون التضحية الحقيقية. يقولون هلموا نقتل الشخص الذي هو أهلٌ للنجاح والمكانة المرموقة، والحق أن المرء لا يصبح كبيرًا بقتل غيره، وإنما يصبح كبيرا بالتضحية وتحمُّل المشاق. فكأن الله تعالى يقول لهم: إنكم لا تكرمون اليتيم، ولا تطعمون المسكين، ولا تضحون بالأموال في مصالح الأمة والمجتمع، وتدمرون أموال التراث، أي لا تقومون بأي من الأعمال الأساسية الضامنة للنجاح، والتي فيها مشقة وتضحية، بل تسارعون إلى قتل من يقوم بهذه الأعمال!! فما ينفعكم هذا؟ فمهما حاولتم القضاء على محمد ﷺ فلن تنجحوا في ذلك، وإنما سيقضى عليكم أنتم، مما يكون دليلا على أن العزّ كله في تقديم التضحية. يكتب الله العز لمن يُدمي كبده بالجدّ والكدّ، أما الذين يهربون من التضحية ويريدون طريقا مفروشا بالورود، فلا يُكتب لهم النجاح أبدا. فكيف تظنون أن مستقبلكم مشرق، ولستم في حالة كَبَد. إن حالة الكبد تقتضي من الإنسان أن يكون كلّه لله أو كلّه للدنيا، ولكنكم لستم لله ولا للدنيا، ليس عندكم الدين ولا الأخلاق التي تبني الأمم، فكيف تظنون أن مستقبلكم مشرق؟

ومن معاني هذه الآية أننا خلقنا الإنسان في وسط السماء، علمًا أن المراد من السماء هنا الأخلاق السامية التي لا بد منها للارتقاء الروحاني، وعليه فقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يعني أن الإنسان الكامل الخلوق هو من يتحلى بالاعتدال والوسطية في أخلاقه.. أي عليه أن يكون على صلة بالسماء أولاً، ثم عليه أن تظهر أخلاقه باتزان واعتدال، فلا يتطرف في سلوكه مائلا إلى جهة واحدة فقط.

والمراد من خلق الإنسان في وسط السماء أيضا أنه ما لم يكن ذا صلة بقواعد الشرع ونواميس الطبيعة.. أي عاملا بها.. فلا نجاح له. لا بد له من العمل بالاثنين.. أي لا بد له من الاعتدال ليكون ناجحا.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٦﴾

التفسير: ليس المراد من الإنسان هنا مَن خُلق في حالة كبد، بل المراد منه مَن فيه نقص وعيب، فيقول الله تعالى أيحسب هذا الذي هو إنسان في الظاهر ولكنه بعيد عن حقيقة الإنسانية كل البعد، والذي يعارض محمدا ﷺ.. أنه لن يُلقى في الضيق ولن يرى الفشل مع تركه مقامَ الكَبَد وعدم التزامه بقوانين الشريعة ونواميس الطبيعة؟ هذا ظن باطل، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. إن هذا قد تعرى من الأخلاق أولاً، وثانيا إنه يميل إلى الغلوّ فيما يوجد عنده من الأخلاق القليلة، مما يجعله سيئ الخلق. فمن الأخلاق السامية مثلاً الإنفاق عند الضرورة الحقة وإكرام اليتامى وإطعام المساكين، ولكن هذا غير معتدل في إنفاقه، فكلما أتاه مال أهلكه بإسرافه وبذخه، فكيف يظن إذن أن الله تعالى لن يلقيه في الضيق، وأنه سينجو من الدمار؟ كيف ينجو من بطش الله تعالى من يقف موقفَ خطأ وينسى المقام الذي خُلق من أجله؟ كلا، بل لا بد أن يقع في البلاء لعدم اعتداله، وسيحل به عذاب الله بدل فضله.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

لُبَدًا: اللُّبَدُ: الكثيرُ لا يخاف فناؤه كأنه الْتَبَدَ بعضُه على بعض. (لسان العرب)

التفسير: أي أنه يقول لقد أنفقتُ أكوامًا من المال كما يعرف الناس، فكيف يقال لي إنك لم تنفق مالا؟

أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٨﴾

التفسير: أي أيحسب هذا الإنسان أن الله تعالى لا يرى أفعاله من فوق ولا يراها العباد على الأرض، ويحسب أن كلّ ما يقوله سيُصدَّق؟ كلا، إن الله ينظر إلى قلب

المرء، لأن صلاح قلبه ضروري لرقيه أيضا. يقول إنه أنفق أكواما من الأموال، ولكن ألا يعلم الله لماذا أنفق هذا المال؟ ثم إن الناس أيضًا يدركون غرضه من إهداره لماله. لا شك أنه قد أنفق ماله، ولكن السؤال: لأي هدف أنفقه؟ فكأن الله تعالى يقول له: لا شك أنك أهلكت مالاً لُبَدًا، ولكنك كنت من الذين قيل فيهم - ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.. فكيف تنال بهذا الإنفاق درجة عند الله، أو مكانة في أعين الناس؟ كلا، لن تنال درجة عند الله كما لن يحترمك الناس، لأن الله يعلم والعبادُ كذلك أنك أهدرت مالك رياء للناس وطلبا للسمعة والجاه. تحمَّسْتَ بعض الأحيان فذبحتَ مئة جمل في يوم واحد، ولكن ما الفائدة من ذبحها ما دمتَ لم تطعم الأيتام الذين كانوا يموتون جوعا، و لم تَكْسُ المساكين الذين كانوا بلا ثياب، و لم تسدّ حاجاتِ الفقراء الذين كانوا في ضيق؟ لو كان في قلبك حبٌّ لبني جنسك، ولو كان في قلبك أثرٌ لما أصابهم من فقر وفاقة، لَما ذبحتَ مئة جَمل في يوم واحد، بل ذبحتَ جَملاً مرة وأطعمتهم، وجملا مرة ثانية وأطعمتهم، وهكذا، ولو فعلتَ ذلك لأغثتهم من ثلاثة إلى ستة أشهر متتالية. ولكنك أردت السمعة بين الناس. لقد أردت أن يأتوك على مطاياهم من أماكن بعيدة ليأكلوا على مائدتك، وإذا سئلوا في الطريق إلى أين يذهبون، قالوا: إن فلانا من الأثرياء قد أقام مأدبة كبيرة ذبح فيها مئة جمل، ونحن ذاهبون لنأكل عنده. فما دمتَ تبغي الجاه والعزّ وتكون شهيرًا بين الناس على أوسع نطاق، فلماذا يرفع الله من قدرك؟ ولماذا يحترمك الناس؟ إن الناس ليسوا بعميان حتى لا يخفى عليهم هذا الأمر الجليّ أنك لم تفعل ما فعلت من أجلهم، بل من أجل نفسك. ثم أليس الله بأعلمَ بما في الصدور؟ ألم يعلم غرضك من هذا كله؟ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.. أي أيظن أن الله تعالى لا يراه، وأن عباده لا يراقبونه. إنه ينفق ماله طلبًا للعز، ويُهلك تراثه طمعًا في الشهرة، ومع ذلك يتوقع أن يعتبره الناس محسنًا إليهم! لماذا يعتبرونه محسنًا لهم وهم يرون بأم أعينهم أن ما يفعله إنما يفعله رياءً للناس؟ ما دام لا ينفق ماله بحيث ينتفع به أكبر عدد ممكن من ذوي الحاجة، فكيف ينال العز عند الله وعند العباد؟

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٩﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿١٠﴾

التفسير: أي اعلموا جيدًا أن معاملتكم مع الله تعالى الذي يقبل العذر الحقيقي ولا يرفضه أبدًا. لو كان عذركم حقيقيا لأنقذكم الله من الدمار. ومن الأمثلة على العذر الحقيقي الحرمان من البصر، فلو مر كفيف بحفرة وسقط فيها فلن يلومه أحد، لأن الجميع سيقول: معذور لأنه كفيف. أو إذا ضلّ الطريق أبكم و لم يستطع أن يسأل الناس فلن يلومه أحد، ويعذره الجميع؛ إذ لم يكن قادرا على أن يسأل أحدا عن الطريق. أو إذا كان عند المرء عينان ولسان أيضا، فضلَّ الطريق، ولكنه لم يجد من يدله على الطريق الصحيح، فواصل سفره حتى وصل إلى عرين الأسود أو وادي الفِيَلة فافترسته الأسود أو داسته الفيلة فإنه أيضا سيُعتبر معذورا، إذ سيقول الناس لم يجد من يدله على الطريق الصحيح، وإن كان عنده عينان ولسان.

باختصار، يُعتبر المرء معذورا إذا كان كفيفا لا يرى، أو أبكم لا يمكنه أن يسأل عن الطريق، أو لا يجد هاديا يدله على الطريق الصحيح.

بيد أن القانون الطبيعي لا يحمي الإنسان من عواقب خطئه رغم كونه معذورًا حقًّا. فمثلاً إن الكفيف معذور ولكنه لو مر بحفرة ليلاً أو نهارًا، فإن القانون الطبيعي لن يحميه من السقوط فيها. وإن الأبكم معذور كلية لو ضل عن الطريق إذ لا يستطيع السؤال عن الطريق، ومع ذلك لا ينقذه القانون الطبيعي من عقوبة انحرافه عن الطريق. ولو ضلّ الطريق مَن يقدر على الإبصار والتكلم فوصل إلى عرين الأسد، لأنه لم يجد من يدلّه على الطريق السليم، فلا شك أنه معذور، ولكن القانون الطبيعي لن يدفعه عن العرين بعيدا، أو لن يدُعّه عن وادي الفيلة دعًّا، لينجيه من براثن الموت. أما الله تعالى فيعلن أننا نعامل العباد في مجال الروحانية وقوانين الشريعة بطريق آخر، فنقبل من الإنسان عذره الحقيقي، كما ننقذه من العقوبة أيضا. فإذا لم يكن للعباد عيون روحانية اعتبرناهم معذورين و لم نعذبهم، وإذا كانوا بُكْمًا في الأمور الروحانية قبلنا عذرهم و لم نعذبهم، وإذا لم يُبعث هادٍ

إلى قوم اعتبرناهم معذورين ولم نعذبهم أيضا. فيا أهل مكة البلدِ الحرامِ لو لم ننـــزل لكم بواسطة محمد قانونًا روحانيا يدلكم على الصراط المستقيم ووجدناكم تائهين كما كنتم من قبل، لقلنا إنهم معذورون إذ لم يأتهم هدى، فيجب أن لا يعاقَبوا. ولكنا جعلنا لكم عيونا، وآتيناكم لسانا، وجعلنا لكم طريقا للرقي، ثم بعثنا لكم من يدلكم على هذا الطريق، ومع ذلك تؤثرون الضلال على الهدى، فكيف يمكن أن تنجوا من عذاب النار؟

لقد ذكر الله هنا ثلاث وسائل للنجاة من الهلاك: الأولى عيون للرؤية، والثانية لسان وشفتان للسؤال، والثالثة طريق الرقي. أي لا بد للنجاح من أن تكون الغاية صحيحة تؤدي إلى الرقي، وأن يعمل المرء وهو مفتّح العين، وأن يسأل الآخرين إذا لم يعرف شيئا. يقول الله تعالى ما دمنا قد هيّأنا لهم الوسائل فما الذي يمنعهم الآن من الرقي؟ لقد أعطيناهم العيون للرؤية واللسان مع الشفتين للسؤال، وكان الطريق الصحيح غائبًا فبعثنا محمدًا ليدلهم على الطريق الذي يصعد بهم. فأي عذر بقي عندهم بعد ذلك؟

لقد ذكر الله تعالى هنا الشفتين مع اللسان، لأن الشفة تحبس الهواء، فيرتفع الصوت. إن مَن تسقط أسنانه لا يستطيع أن يتكلم بصوت عال. لقد سقطت لي سنّ واحدة، وعندما أخطب أشعر أحيانًا أن الهواء يخرج من مكان هذه السن الفارغ، ولا أنطق بعض الكلمات بشكل سليم. وكان الخليفة الأول ﷺ يقول إن الناس لا يحبّون الشفاه الكبيرة، ولكن الله تعالى قد جعلها رحمة كبيرة لي، لأن أسناني كلها قد سقطت، ومع ذلك فصوتي رفيع بسبب شفاهي الكبيرة.

فالله تعالى يقول نحن آتينا الإنسان لسانًا للكلام وأعطيناه شفتين لكي يرفع صوته إذا كان سامعه بعيدًا.

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١١﴾

التفسير: النجد هو الطريق المرتفع في الجبل، ولكن المفسرين قالوا إن النجدين هما طريق الخير والشر، كما قال ابن عباس وابن مسعود، ومفهوم الآية أننا أخبرنا الإنسان بطريق الخير والشر، ولكنه لم يتبع طريق الخير.

وعندي أن (النجدين) لا تعني طريق الخير والشر، وإنما تعني طريق الرقي الديني والمادي.. ذلك لأن طريق الشر لا يسمى مرتفعًا، إذ لا يجد الإنسان صعوبة في سلوكه ولا ينال أي عزّ أيضًا، والطريق يوصف بالارتفاع لهذيْن السببين، أعني أن الإنسان يعاني في الصعود فيه وينال العز بالسير فيه. إذن، فقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ يعني أننا قد فتحنا أمام الإنسان طريق الرقي المادي وطريق الرقي الروحاني بواسطة محمد ﷺ، فالذين يؤمنون به بصدق عاملين بأحكام الإسلام كلها بخلوص نية، فلن يرتقوا في الروحانية ولن يفوزوا برضى الله لحسن أخلاقهم فحسب، بل سوف يُنعم الله عليهم بنعم الدنيا أيضا.

وبالفعل نرى أن أصحاب الرسول ﷺ لم ينالوا الدين فقط، بل الدنيا أيضا، حتى وضع الله في أيديهم زمام الحُكم أيضًا. وهذا ما ينبه الله تعالى الكافرين إليه، إذ يقول تحتقرون اليوم مَن يؤمن بمحمد وتضحكون عليهم بأنهم فتيةٌ جَهَلة مهانين، ولكنكم لا تعرفون أن هؤلاء الذين تزدرونهم اليوم سيصبحون ملوك الدنيا ببركة إيمانهم بمحمد ﷺ، وستُفتح عليهم أبواب الرقي المادي والديني. وبالفعل قد حقق الله هذا الوعد، وأعطى الصحابة المُلك، وهكذا قد هُدوا إلى النجدين.

ينبه الله تعالى الكافرين أنه كان بوسعكم أن تحرزوا الرقي الديني والروحاني باتباع الإسلام. إن الفوز برضى الله تعالى بالتخلق بأخلاق حميدة، وجَمْعَ شمْل الأمة وتقوية البلاد سياسيًا بخدمتها كانت كلها يقينية. لقد أعطيناكم العيون واللسان ومهدنا أمامكم مجالا واسعا للرقي الديني والمادي من خلال الإسلام، إلا أنكم لم تتبعوا هذا الطريق الذي يؤدي إلى فلاحكم، بل ظللتم تائهين في طريق الهلاك والدمار.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

اقتحمَ: مِن معاني الاقتحام الانهماك في عمل بإغماض النظر عن عواقبه، فقد ورد في المعاجم: اقتحمَ العقبةَ: رمى نفسَه فيها بشدة ومشقة. وقَحَمَ في الأمر: رمى بنفسه فيه فجأةً بلا روية. (الأقرب)

العَقَبة: مَرْقًى صعبٌ من الجبال؛ والطريقُ في أعلاها. (الأقرب)

التفسير: أي أننا كنا قد هيّأنا أسباب رقي العرب ببعثة محمد ﷺ، فكان بإمكانهم أن يصلوا إلى الله تعالى وينالوا الدنيا أيضا. كان بإمكانهم أن يفوزوا برضى الله ويبلغوا ذروة المدارج الروحانية، كما كان بوسعهم أن ينالوا الحُكم بجمع شملهم وتقوية سياسة بلادهم. فكان ينبغي لهم أن يضحوا بأرواحهم كالفَراش حول الشمعة المحمدية، ويخرّوا ساجدين على عتبة الله شكرًا على أنه قد منّ عليهم منّة عظيمة، حيث رفعهم من الثرى إلى الثريا. ولو أنهم فكروا حقًا لظلّت ألسنتهم تلهج بذكر الله تعالى بسبب مِنَنه، فرحين بحظّهم السعيد، إذ ظهر بينهم ذلك الموعود الذي كانوا ينتظرونه منذ ٢٥٠٠ سنة، والذي كان الغاية من تأسيس مكة وثمرةَ أدعية إبراهيم وإسماعيل. كان واجبهم أن يقفوا إلى جانبه غير آبهين بالعواقب كالمجانين، ويريقوا دماءهم بدل قطرة من عرقه، ولو أنهم فعلوا ذلك لنالوا الدين والدنيا معًا، وكان لهم نصيب في المُلك الروحاني، كما سقطت الدول المادية في أحضانهم. ولكنهم للأسف خافوا اقتحام العقبة كما يخاف الضعيف النحيف صعودَ قمة الجبل، فيظل واقفًا أسفل الجبل خوفا من الإرهاق وانقطاع الأنفاس. لقد فَقَدَ هؤلاء الهمة و لم يتطلعوا إلى الرقي الذي سيرفع مكانتهم. لقد خافوا من الصعود وتجنبوا المشقة والتعب ورأوا طريق الدعة سهلاً، فاتبعوه.

وفي الآية التالية قد بين الله تعالى المراد من قوله إنه هدى الإنسان طريقا مرتفعا، فخاف الصعود إلى الذروة.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات

فَكُّ رقبةٍ: أي تحرير العبيد.

التفسير: لهذه الآية مفهومان: أوّلهما أنه كان من واجبهم أن يسعوا لتحرير الأرقاء، ولو أنهم عملوا على تحريرهم لنالوا الحرية على صعيد الأمة، ولكنهم بدلًا من أن يعملوا على تحرير الأرقاء روّجوا للرقّ وصبّوا الظلم على العبيد المسلمين.

الواقع أن الإسلام قد أمر بتحرير العبيد منذ البداية، لأن تحريرهم ضروري جدًّا لرقي الأمة. لا يمكن أن تزدهر أمة في الدنيا من دون إقامة المساواة في المجتمع ومحو التمييز الطَبَقي. والرقي الحقيقي والسلام الدائم محال في الدنيا ما بقي التمييز بين الصغير والكبير. ستفشل كل التدابير للرقي والازدهار طالما ظلت هذه الفتن في الدنيا و لم تتّحد الجهود للقضاء عليها. إن هذا التمييز نفسه يؤدي إلى الرق الذي يهدف الإسلام إلى محوه، والذي قد رفع صوتَه ضدّه منذ أول يوم. لو بقي هذا التمييز كما هو فإن كبار القوم سيظلون يريدون لأنفسهم المزيد من العز ثم المزيد ثم المزيد حتى يأتي يوم يظنون فيه أنه ليس في الدنيا من هو أكبر منهم.

عندنا في الهند زعيم كبير يظن أنه ليس هناك زعيم أكبر منه. وهذه العُقدة تظل راكبة رأسه دائمًا، فيظل مهتما بإظهار كبريائه وإعزازه على الدوام. ذات مرة عُقدت جلسة في مدينة شِمْله" لكبار زعماء الهند، ودُعيتُ أنا أيضا ببرقية. كان السيد غاندي مُضرِبًا عن الطعام عندها قائلا إنه سيموت جوعا إذا لم يتم اتحاد الهندوس والمسلمين، ولما كانت هذه قضية هامة، فقد اجتمع هناك زعماء مختلف الطوائف والأقوام من كل أنحاء الهند من مومباي، مدراس، سي بي، البنغال، البهار، أوريسا، وسرحد وغيرها من الولايات الهندية الأخرى، وكان عددهم قريبا من ١٥٠ زعيما على ما أظن. ولما رأى هذا الزعيم كل هؤلاء القادة الكبار، أخذته عقدة الكبرياء، فلما جاء دوره لإلقاء كلمته وجدتُه يكرر جملة مفادها أن هذه القضايا الهامة لن تفصلها هذه الجموع المحتشدة، وإنما يفصلها قادة القادة أمثالنا.

فكان يشق عليه أن يسمي الناس هؤلاء القوم قادة، مع أنه لم يحضر في ذلك المؤتمر قادة طائفة واحدة، بل حضره ممثلون عن الهندوس والسيخ والمسلمين كلهم.

فكما أن عقل الفرد يصاب بالغرور، كذلك تصاب عقول الشعوب أيضًا بهذه العقدة أحيانًا؛ فتأبى إلا أن تعتبر الشعوبَ الأخرى كلها كالعبيد وأسوأ من المنبوذين. فقبل أيام كانت هناك ضجة في الجرائد أن الناس أخذوا يطلقون لقب "العلاّمة" على كل من هب ودب ومَن لا يقدر على فكّ الخطّ أيضًا، مع أن هذا اللقب كان لا يُطلق مِن قبل إلا على رجال بمكانة الشاعر "إقبال" مثلاً؛ ففي اجتماع عُقد في مدينة "لُدْهيانه" دعوا كل من خطب فيه "العلامةَ"، مع أنه لم يكن يتقن قراءة الأوردو من هؤلاء الخطباء أحد.

هذا ما ورد في الجرائد. ونتيجة هذا المرض، أن الذي يكون علاّمةً حقًا يناديه هؤلاء المغرورون بلقب آخر ليسقطوه من أعين الآخرين، وهكذا لا تتسع شقة الكراهية بين صغار القوم وكبارهم فحسب، بل يظن البعض أنهم كبار القوم والآخرون عبيدهم.

أتذكر طريفة حصلتْ معي عندما كنت طفلاً، وكنتُ أنا و "مير محمد إسحاق" ﷺ بدأنا نتعلم على يدي حضرة المولوي نور الدين ﷺ. لا شك أن كل أستاذ يُحترم عادة، ولكن حضرة المولوي ﷺ كان يتمتع بمكانة مرموقة في الجماعة، وفي تلك الأيام إذا قال البعض: هذا ما قال "حضرة المولوي"، فكان يعني به حضرة المولوي نور الدين أو المولوي عبد الكريم السيالكوتي رضي الله عنهما. فكان الأمر يسبب لمير محمد إسحاق إشكالا ومضايقة. فصبر فترة ثم قال في يوم غاضبًا: ما هذا؟ عندما نسأل الناس مَن قال هذا الكلام يقولون دائمًا: حضرة المولوي، مع أنهم يقصدون تارةً المولوي عبد الكريم، وتارةً المولوي نور الدين. هذا الأسلوب ليس سليما. في المستقبل إذا قال المولوي عبد الكريم شيئًا فأقول قاله: حضرة المولوي، وإذا قال المولوي نور الدين شيئا أقول: قاله حضرة الجولوي، وهكذا أميّز بين الاثنين.

لا شك أن هذه كانت سذاجة الطفولة، ولكن الواقع أن البعض إذا نالوا عزًّا احتقروا الآخرين باستمرار حتى اعتبروهم عبيدا.

فالحق أن تحرير الرقيق هو تحرير القوم كلهم. هذه ليست قضية عشرة أشخاص أو عشرين شخصًا، بل الواقع أن شخصية الأمة لا تتطور إلا بالقضاء على هذه الامتيازات القائمة على أسس خاطئة. وكذلك لا يمكن الفوز برضى الله تعالى إلا بتحرير العبيد أو بالسعي الحثيث لتحريرهم.

والمفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هو إصلاح العقائد الخاطئة وكسر قيود الطقوس والعادات الفارغة، لقول الله تعالى عن الكافرين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾(الرعد: ٦).. حيث أطلق الله تعالى لفظ الأغلال على الوثنية والكفر، وبين أنها بمنـــزلة أطواق تُثقل أعناق القوم. وكذلك قال الله تعالى عن اليهود ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٨).. أي أن رسولنا هذا جاء ليضع عنهم ثقلهم ويفكّ أغلالهم. فهاتان الآيتان توضّحان أن كلمة ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تعني تحرير الرقيق، كما تعني إبطال العقائد الخاطئة وإزالة أعباء الطقوس الفارغة والنظم الزائفة التي يُثقَل بها القومُ مِن قِبل كبار الظالمين كالأحبار والرهبان والجبابرة، فلا يقدر القوم على رفع رؤوسهم.

إذن قوله تعالى ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يعني أننا أردنا تحريرهم من رقّهم، ولكنهم لم يجرؤوا على كسر أغلالهم، ولا على تحرير رقيقهم ولا على النهوض بالطبقة الدنيا من مجتمعهم ولا التحرر من الطقوس والرسوم ولا التخلي عن العقائد الباطلة.. فكانت النتيجة أنهم ظلوا في الحضيض.

أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

مَسْغَبة: سَغَبَ الرجلُ سَغْبًا وسُغوبًا وسَغَبًا وسَغابةً ومَسْغَبَة: جاعَ (الأقرب). فالمسْغَبَة: الجوع.

التفسير: أي لو كان عند هذا الإنسان حب صادق لليتامى والمساكين وإحساس سليم بإزالة معاناتهم لأطعمهم يوم الجوع، أي رعاهم في أيام القحط والمجاعة والفقر

وهيأ لهم الطعام والغلال. صحيح أنه كان يذبح ١٠٠ جمل في يوم واحد، ولكن عمله هذا كان في غير محله، إذ كان عليه أن يذبحها من أجل اليتامى والمساكين، فيقيم لهم مأدبة ويطعمهم ويزيل جوعهم. ولهذه الحكمة نفسها قال الله تعالى هنا ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾.. أي أننا قلنا من قبل أن هذا الإنسان كان ينفق ماله رياءً للناس طلبًا للجاه، فكان لقائل أن يقول: ربما كان يطعم اليتامى والمساكين أيضا، ودرءًا لهذه الشبهة قال الله هنا إن هذا الإنسان كان ينفق ماله وينحر إبله بلا شك، ولكن ليس في يوم الجوع.. أي ليس حين يكون الجياع بحاجة إلى طعام، بل كان ينحر ١٠٠ من الإبل في يوم واحد كلما ركب رأسَه جنونُ السمعة والرياء، مع أنه لو فعل ذلك طبقًا للضرورة الحقة لنحر لإطعام أصدقائه جملا واستبقى ٩٩ جملا لإطعام اليتامى والمساكين لكيلا يعانوا من الجوع والفاقة. فحيث إنه لم يهتم بضرورات المجتمع، وأضاع ماله في غير محله فلا يستحق المدح عندنا ولا يحظى باحترام الناس.

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

التفسير: لقد أضاف الله تعالى هنا كلمة ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، لأن الإنسان يكون مضطرًّا لأن يُسكِن اليتيمَ ذا القرابة في بيته، وينفق على أكله وشربه ولباسه وتعليمه وغير ذلك؛ بغض النظر أيقوم بذلك طوعا أو كرها، إلا أن مسؤولية القرابة تفرض عليه أن يرعى يتيما ذا قرابة. ولكن الله تعالى يقول هنا إنكم لا تطعمون يتيما ذا قرابة أيضًا، مما يدل على سوء حالكم إلى حد خطير. إذ لا تعني هذه الآية أن على المرء أن يطعم اليتيم القريب ولا حاجة له أن يطعم اليتيم الذي لا قرابة له به، بل المراد أن هؤلاء لا يُرجى منهم أن يرعوا اليتامى الأقارب ويسدّوا حاجاتهم، فكيف يرجى منهم أن يهتمّوا بأداء واجبهم نحو اليتامى الآخرين؟

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٧﴾

التفسير: أي: مسكينا ذا لصوق بالتراب لفقره. وله مفهومان: أوّلهما المسكين الذي قد ساءت حالته المادية جدا، إذ يقال في الأردية أيضا فلان قد صار ترابا.. أي أصبحت حالته يرثى لها جدا. والمفهوم الثاني أنه مسكين جمع بين الضعف المادي والبدني معًا، فهو فقير مدقع كما هو مريض ضعيف لا يقدر على المشي حتى يذهب إلى أبواب الأغنياء للسؤال. لقد ازداد ضعفه وهزاله بحيث أصبح ملقى على الأرض، فلا يقدر على الحراك والسؤال، كما لا يلوي عليه أحد. فكيف يسأل الله تعالى مِن فضله مَن لم يترحم على هؤلاء المساكين المرضى الضعفاء غير القادرين على السؤال؟ وكيف يحترمه الناس؟ لا شك أن الفقراء الذين لا يعملون عادة لكونهم معذورين، يرجى منهم أيضًا وقت الشدائد أن يعملوا ليأكلوا، إلا أن مِن الفقراء مَن لا بد للإنسان أن يحمل أعباءهم، كاليتيم القريب أو الفقير المدقع الضعيف غير القادر على العمل. ولكن هذا الكافر لا يعتني بمثل هؤلاء الفقراء الضعفاء أيضا عند الشدة، مع أن أخلاق الإنسان إنما تُختبر وقت الشدائد.

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٨﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن العمل الحسن وحده لا يكفي، بل لا بد معه من الإيمان، وكذلك لا بد من الحماس لنشر الخير بين القوم. والإيمان ليس هنا بمعناه المعروف، بل المراد الإيمان بأهمية أعمال الخير المذكورة سابقا.. أي بالإضافة إلى القيام بتلك الأعمال لا بد للمرء أن يكون موقنًا بأهميتها أيضًا ولا يقوم بها نفاقا، لأن العمل المصحوب بالنفاق لا يولد في صاحبه تلك البشاشة التي تساعده على القيام به على ما يرام، إنما يقوم المرء بالعمل بحماس وبشاشة إذا كان مؤمنًا بضرورته وصحته.

والمعنى الثاني هو أن هؤلاء لو أخلصوا في أعمالهم لتيسّرتْ لهم التقوى، وبالتالي وُفِّقوا للإيمان. وهذا يعني أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ جاء بمعنيين، أحدهما: "بالإضافة إلى ذلك"، والثاني "بعد ذلك". وكلاهما ثابت لغةً. فنظرًا إلى المعنى الأول ستعني الآية ما ذكرتُه من قبل أي أن يقوموا بهذه الأعمال مؤمنين بأهميتها.. أي أن العمل لا يكتمل إلا بالإيمان بأهميته، لأن النفاق ينخر جذر العمل. أما نظرًا إلى المعنى الثاني فستعني الآية أنهم لو قاموا بهذه الحسنات لصاروا مؤمنين.. أي لآمنوا بالرسول ﷺ نتيجة حسناتهم هذه، لأن العمل الذي يتم بصدق نية يؤدي إلى الإيمان. كان حكيم بن حزام صديقًا للنبي ﷺ، حتى قبل دعواه، فلما أسلم قال للنبي ﷺ: أينفعني ما تصدقت به في زمن كفري أم ضاع كله؟ فقال ﷺ: "أَسْلمتَ على ما أَسْلفتَ من خير" (البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل رحمه في الشرك).. أي كيف يضيع ولماذا؟ لقد نلتَ نعمة الإيمان نتيجة تلك الخيرات.

ثم قال الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.. ونظرًا إلى المعنى الأول لِـــ (ثم) سيكون المراد من قول الله هذا أنهم لو آمنوا بأهمية هذه الأعمال إلى جانب القيام بها، ولو أنهم لم يكتفوا بالقيام بها، بل دعوا الآخرين أيضا لأدائها بصبر وثبات، وحثّوهم على الرحمة بالناس، لكان مبارَكا لهم. علمًا أن التواصي يعني الوصية مرة تلو مرة، والصبر يعني الثبات والدوام، والمرحمة يعني الرحمة.

أما بحسب المعنى الثاني لِـــ (ثم)، فالمراد أنهم بعد القيام بهذه الأعمال لا بد أن يوفقوا للإيمان بمحمد ﷺ وأن تقوى فيهم عاطفة الخير لدرجة أنهم بدلاً من ظلم الآخرين يتحمّلون الظلم بكل شوق بعد الإيمان بمحمد ﷺ، ويحثّون الآخرين على الصبر على اضطهاد القوم، ثم مع صبرهم على الظلم يعاملون أعداءهم برحمة، وينصحون أصدقاءهم أيضا بألا يغضبوا على أعدائهم، بل يرحموهم رغم ظلمهم.

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات

المَيمنة: البركةُ؛ جهةُ اليمين. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم إن الذين يُؤتَون سجلَّ أعمالهم في يمينهم يوم القيامة سينالون العزة ويدخلون الجنة، وعليه فيكون لقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مفهومان: أولهما أن الذين صفتهم ما قد ذكرنا من قبل والذين يعملون بأحكام الله تعالى سيكونون ممن يؤتون سجل أعمالهم في يمينهم؛ أما المفهوم الثاني فهو: أن الذين يتبعون أحكام الله تعالى عن طيب نفس سيرثون بركات الله تعالى.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

المَشْأَمة: الشِمالُ؛ النحسُ. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية أيضا مفهومان: أولهما أن الذين يكفرون بأحكام الله تعالى سيكونون من الذين يُؤتَون سجلَّ أعمالهم في شمالهم، والثاني أن هؤلاء سيكونون نحسًا لأنفسهم ولقومهم، وسيكون مآلهم الفشل.

عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢١﴾

شرح الكلمات:

المُؤْصَدة: المُؤْصَدُ: المُطْبَقُ والمُغْلَق. (الأقرب)

التفسير: ربما لم يدرك الأولون حقيقة النار المُؤْصَدة كما ينبغي، ولكن هذا الأمر لم يعد صعبًا على الفهم في العصر الحاضر، لأن العلوم الحديثة قد كشفت أن أشد النار حرقةً ما يكون مغلقا من كل جانب. تكون نار الكير شديدة لكونها مغلقة من كل جهة، حيث تخرج من ثقب صغير فقط، فتكون شديدة الحرارة وتحول الشيء رمادا.

لقد بين الله تعالى هنا مصير الكافرين وأخبر أن هؤلاء يعارضون الإسلام اليوم ويؤذون المسلمين أشد الأذى، فليتذكروا أنهم سيُلقَون في نار مغلقة من كل جهة فتحرقهم وتحوّلهم رمادا. بمعنى أن كفار مكة سيُدمَّرون في حربهم ضد الإسلام والمسلمين بحيث لن يبقى لهم أثر. وبالفعل نرى أنهم هلكوا وبادوا بحيث لا تجد اليوم في العالم كله أحدًا مِن عَبَدةِ اللات ومناة والعزى. لقد سحقهم الله برحى عذابه وصبّ عليهم غضبه بحيث لم يبق لهم أثر في الدنيا.